

فاسيلي بُودوستنيك
أوفشي ياخت

Mouyn

ألف باء
الماديتة الجديتة



دار الطليقة بيتوت

ترجمة

جوز طرابيشي

جميع الحقوق محفوظة

لدار الطليعة

ص.ب ١١١٨١٣

بيروت - لبنان

تلفون ٣٠٩٤٧٠

٢٥٧١٧٨

الطبعة الاولى

كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩

فاسيلي بودوستنيك ، أوفسي ياضوت

ألف باء المارديّة الجدلّية

شَرْحَةٌ

جورج طرابيشي

دارُ الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة لكتاب

**Précis De
Matérialisme Dialectique**

**Par
Vassili Podossetnik
Ovchy Yakhot**

**Editions Du Progrès
Moscou**

تقديم

الغرض من هذا الوجيز أن يلم قراؤه بالمفاهيم والمشكلات الأساسية للمادية الجدلية التي تؤلف جزءا مكونا من الفلسفة الماركسية .

يأخذ مؤلفا هذا الوجيز بعين الاعتبار أيضا واقع أن القراء سيدرسونه للمرة الأولى الفلسفة الماركسية . لهذا حرصا على شرح مفاهيم المادية الجدلية ومقولاتها في شكل شعبي بقدر الإمكان ، موردين من الأمثلة أقربها وأسهلها إلى التناول ، قابسين أياها من ميدان العلم والحياة الاجتماعية .
يأمل المؤلفان أن يكون هذا الوجيز نافعا لكل من يرغب في الإلمام بأصول الفلسفة الماركسية .

المؤلفان

الفصل الأول

المادية الجدلية فلسفة الماركسية

١ - ما الفلسفة ؟

تعلمنا التجربة اليومية انه حتى نفهم على الوجه الصحيح ما يدور حولنا فلا بد ان تؤلف تصوراتنا عن الحياة والعالم والمكان الذي نشغله فيهما نسقا علميا متلاحما . والانسان بحاجة الى نسق كهذا لا يمكنه فهم علل الاحداث فحسب ، بل يمكنه ايضا تعيين مكانه في العالم وممارسة تأثير فعال على هذه الاحداث ، والمشاركة بفعالية في الكفاح التحرري الذي تدور رحاه في عصرنا هذا . وبعبارة اخرى ، لن يسعنا ان نفهم الاحداث التي تجري حولنا الا اذا استرشدنا بهدي تصور صحيح

للعالم يضم بين طياته كل ما نعرفه عن الحياة ، والعالم فسي مجمله ، والظواهر والاحداث التي تقع فيه . والفلسفة تحديدا هي التي تعطينا هذا الضرب من المعرفة . وبناء عليه ، يحتاج بناء الحياة الجديدة اشد الحاجة ، بجانب العلوم الاخرى ، الى الفلسفة . فعن طريقها ينمون فضولهم الفكري ، ويطورون موقفا متبصرا ازاء كل ما يجري في العالم ، ويوسعون افقهم . وكلمة «الفلسفة» بالذات ، التي نحتها في العصور القديمة الاغريق ، تعني حب الحكمة ، حب العلم .

بيد انه يخلق بنا الا يغيب عن انظارنا ان الفلسفات لا تعطي جميعا تصورا علميا عن العالم . فبعض الفلاسفة ، وعلى الاخص في البلدان الامبريالية ، يشوهون ويحرفون الاحداث التي تقع في العالم . وعليه ، لا تصلح كل فلسفة بلا تمييز لان تصير دليلا ومرشدا ، لانه ما كل تصور عن العالم صحيح بالحثم والضرورة . ان فلسفة مبنية على العلم هي وحدها التي تستطيع ان تعطي تصورا علميا عن العالم . وتبين لنا التجربة ان الناس ، بحصولهم على معارف فلسفية مبنية على العلم ، ينتهون الى قناعات ثابتة ، حازمة ، تفودهم الى الذود عن مصالح شعبهم وحرية بلادهم واستقلالها . والقناعة التي تتولد لدى الناس بصحة افكارهم تدفع بهم الى اجتراح مآثر عظيمة باسم السلام والسعادة .

كيف نفسر ، والحالة هذه ، اهمية الفلسفة ؟

اذا كانت الفيزياء وعلم الفلك وعلم الحياة وسائر العلوم تدرس القوانين التي تحكم قسما فقط من ظواهر الطبيعة ، فان الفلسفة بالمقابل تدرس اعم القوانين ، اي تلك التي تحكم ارتقاء العالم في مجمله . **الفلسفة هي علم اعم قوانين ارتقاء الطبيعة والمجتمع والفكر الانساني** . لكن بجانب الصواب لو اخلصنا من ذلك الى استنتاج يزعم ان الفلسفة يسعها الاستغناء عن العلوم الاخرى ، وان هذه العلوم تستطيع بدورها الاستغناء عن

الفلسفة . فهذه الاخيرة ليس لها ان تكون تصورا متقدما ،
تقدما ، عن العالم ، ما لم ترتكز في استنتاجاتها الى منجزات
العلوم الاخرى . ومثل هذه الفلسفة هي في عصرنا الحاضر
فلسفة الماركسية - اللينينية التي تستند الى آخر مكتشفات
العلم ، وتسليح بدورها هذا الاخير برؤية عامة للعالم وبمنهج
للمعرفة متقدمين ، فتساعده على الوصول الى معارف جديدة ،
الانسانية هي بمسيس الحاجة اليها .

تسليح الفلسفة البشر اذن بنسق من الافكار عن العالم . تلك
هي قوتها . لكن سبق لنا القول انه ليس لدى الناس جميعا
تصور واحد عن العالم . فهو عند بعضهم علمي وتقدمي ، وعند
بعضهم الاخر منافع للعلم ، بله رجعي .

مثال : ان اولئك الذين يكافحون في سبيل حرية الشعوب
وسعادتها والذين يذيقون هذه الشعوب الاضطهاد يفهمون فهما
متغايرا معنى الحياة والسعادة والحرية ، الخ . واولئك الذين
يكافحون الاستعمار والامبريالية لا يعطون لفظتي الحرية والسعادة
المعنى نفسه الذي يعطيها اياه الاستعماريون والامبرياليون .

ان هذا الاختلاف في وجهات النظر يرتفع ، في المقام
الاول ، بالوضع الذي يشغله في الحياة وفي المجتمع هذا الفرد
او ذلك . وكما يدلنا التاريخ ، لا يمكن ان توجد ، في مجتمع
مؤلف من طبقات ومن فئات اجتماعية مختلفة متطاحنة ، فلسفة
وحيدة ، تصور للعالم مشترك بين المضطهدين والمضطهدين .
وليس للفلسفة ان تكون محايدة في الوقت الذي تخوض فيه
الشعوب كفاحها من اجل الاطاحة بالنير الاجتماعي والاستعماري .
الفلسفة ملتزمة اذن على الدوام . وبعبارة اخرى ، تذود عن
مصالح طبقات محددة . لهذا كانت فلسفة كل حقبة تاريخية
حلبة لصراع دوما . وكان المتصارعان على هذه الحلبة وما يزالان
المادية والثالثة .

ينبغي ان نلاحظ بادىء ذي بدء ان مدلول هذين المفهومين

عرضة للتحريف في غالب الاحيان . فالتطبقات الرجعية تسعى
بجميع الوسائل الى الابقاء على التصور المبثذل للمادية والمثالية
سائدا في صفوف الشعب . فالماضي بموجب هذا التصور المبثذل
يهتم ، اول ما يهتم ، بمصالحة المادية . اما المثالي فيعمل في
خدمة قضية ما ، فكرة ما ، مثل أعلى ما ، بصورة متجردة
ومنزهة عن الغرض . وهذا التصور لا يمت بصلة الى الفارق
القائم في الواقع بين المعسكرين الفلسفيين الرئيسيين . والحق
ان الخط الفاصل بينهما يقع على مستوى مفاير تماما .
بين جميع المسائل التي تهتم بها الفلسفة بوصفها واحدا من
اقدام العلوم ، ثمة مسألة جوهرية يحدد حلها الاتجاه الاجمالي
للنظام الفلسفي .

فيم تكمن اذن المسألة الجوهرية لكل فلسفة ؟
نصطدم في العالم بكثرة من الاشياء والظواهرات . بعضها له
وجوده المستقل عن وعي الانسان ، ومن ذلك الاحجار ، الاشجار ،
الرعد ، البرق ، الماء ، الحيوانات ، النباتات ، وغيرها وغيرها .
ونحن نعرفها بفضل ما تمارسه من تأثير على اعضاء حواسنا :
ففي وسعنا ان نراها ونجسها ، ان نقيسها ونزنها . لكن توجد
ايضا ظاهرات من نوع آخر ، كالفكر والاحساسات والارادة
والرغبة على سبيل المثال . ونحن لا نستطيع لا ان نراها ولا ان
نسمعها ، لا ان نقيسها ولا ان نزنها . ان هذه الظاهرات لا توجد
الا في وعي الانسان . اذن توجد في العالم فئتان من الظاهرات :
ظاهرات لا تتعلق بوعينا ، بل توجد موضوعيا ، اي بذاتها ؛ انها
الظاهرات المادية . والظاهرات الاخرى لا توجد الا في وعينا .
وهي ظاهرات **مثالية ، روحية** . والسؤال الكبير هو الذي يتعلق
بمعرفة ما علاقة التبعية التي ينبغي ان نقيمها بين هاتين الفئتين
من الظاهرات ؟ وبعبارة اخرى ، ما الذي ينبغي ان نعتبره معطى
اول : العالم المادي (الطبيعة) او الوعي ؟ وهذا واحد من وجوه

المسألة الجوهرية لكل فلسفة . وهوذا وجهها الآخر: هل يستطيع الانسان او لا يستطيع ان يعرف العالم ، ان يكون عنه تصورا **مطابقا** ؟ ينقسم الفلاسفة ، بحسب اجابتهم على هذا السؤال ، الى معسكرين كبيرين . فأولئك الذين يؤكدون ان العالم المادي ، الطبيعة ، هو المعطى الاول ، وان الوعي معطى ثان ، مشتق من الطبيعة ، يؤلفون **معسكر المادية** الفلسفي . اما اولئك الذين يؤكدون ، على العكس ، ان الوعي معطى اول ، والذين يعتبرون الطبيعة معطى ثانيا ، مشتقا من الوعي ، فيؤلفون **معسكر المثالية** . وها قد مضت . ٢٥٠ سنة على تحارب هذين المعسكرين ، هذين الاتجاهين الاساسيين للفلسفة . فالماديون ، الذين يستندون الى منجزات العلم ، يثبتون ان الاشياء والظواهر المادية التي تحيط بنا توجد بذاتها ، اي خارج وعينا . فالارض والانهار والاحجار والبروق والاشجار ، الخ ، ذات وجود مستقل عن الانسان ووعيه . بل اكثر من ذلك ، فقد برهن العلم على ان العالم كان موجودا قبل ان يظهر الانسان ، الكائن الواعي ، على سطح الارض . اما المثاليون فيؤكدون ، خلافا لمعطيات العلم ، ان العالم المحيط وجميع الاشياء والظواهر المادية انما تتولد عن الوعي . انهم يقدرون ان الفكر والمفهوم والفكرة هي التي انجبت الاشياء والمواضيع .

يعرف تاريخ الفلسفة نوعين من المذاهب المثالية : **المثالية الموضوعية** و**المثالية الذاتية** . الموضوع ، بوجه عام ، هو ما يوجد خارج الانسان ، مستقلا عن وعيه . وينطلق بعض المثاليين من واقع ان الفكرة توجد وجودا موضوعيا ، وانها في اصل خلق العالم . ويطلق عليهم اسم **المثاليين الموضوعيين** . فهم ، على سبيل المثال ، فيلسوف اليونان القديمة افلاطون ، وفيلسوف القرن التاسع عشر الالماني هيغل ، وكذلك ممثلو المذهب الفلسفي الرسمي للكنيسة الكاثوليكية ، التوماوية الجديدة . **الذاتي** هو ما يخص ، ما يلزم فردا بعينه ، شخصا بعينه ،

اي الذات . بعض الفلاسفة ، وعلى سبيل المثال الانكليزي بيركلي (القرن الثامن عشر) ، يعتبرون ان الانسان وحده ووعيه هما اللذان يتمتعان بوجود فعلي . يؤكدون ان الاشياء لا توجد الا اذا ادركها الانسان مباشرة بحواسه ، الا اذا رآها وسمعها ، الا اذا ادركها باللمس . والاشياء ، اذا لم يدركها الانسان حسيا ، لا وجود لها . في رايه ان العالم لا يوجد الا في الوعي ، فسي احساسات الذات . «وجود الشيء مرهون بادراكه الحسي» ، «الاشياء تركيبات من الاحساسات» : هذا ما كان يؤكد بيركلي واتباعه . وهذا يعدل التوكيد بأن الذات ، اي الانسان ، تولد العالم ، ولاكثر من مرة : حسب الانسان ان يغمض عينيه فيختفي العالم . ان هذا الضرب من المثالية قد أطلق عليه اسم المثالية الذاتية .

والمثالية ، سواء اكانت موضوعية ام ذاتية ، تدحضها التجربة ، تدحضها الحياة اليومية التي تبرهن على صحة التصور المادي عن العالم .

ان الاشياء والظواهر التي تحيط بنا لها وجودها الفعلي في نظر كل انسان سوي ، اي وجودها المستقل عنا وعن وعينا . والمادي يجري محاكماته العقلية وفق ما هو كائن : فالاناس له وجوده الاول ، ونحن نراه ونشمه . والاناس يثر بحكم خواصه الموضوعية ، التي لا تتعلق بالانسان ، احساسات معينة : مذاقا خفيف الحموضة ، حلوا ، لونا اخضر ، الخ . وهذا ما يسمى بالتصور المادي العفوي للعالم الذي يرشد الناس في حياتهم العملية . ويسبغ الفلاسفة الماديون على هذا التصور طابعاً منظماً ، متماسكاً . والمادية الفلسفية ، بخلاف المادية العفوية ، واعية ، مبنية على أسس علمية .

من هنا ندرك اهمية المسألة الجوهرية في الفلسفة . فليس من قبيل المصادفة ان تمثل هذه المسألة ميدان القتال الذي

يتواجه فيه الماديون والمثاليون منذ العهد الغابرة حتى ايامنا هذه . وهذا الصراع الايديولوجي يعكس صراع الطبقات ، صراع القوى التقدمية والقوى الرجعية في قلب المجتمع . وبوجه عام ، زادت المادية على الدوام عن مصالح قوى التقدم ، بينما حامت المثالية على الدوام ، وبغير ما استثناء تقريبا ، عن مصالح القوى الرجعية .

ان دراسة العالم وفهمه يرتئنان ايضا بالمنهج الذي يستخدمه هذا الفيلسوف او ذاك كي يفهمه . والمنهج الفلسفي الذي يجري استخدامه لدراسة الوقائع الطبيعية والاجتماعية له اهميته الكبرى بالنسبة الى الفلسفة والعلم . ولفظة «منهج» تعني في اليونانية : طريقا ، اتجاها . واذا اخترنا الطريق السليم في دراستنا للطبيعة ، اي اذا استرشدنا بمنهج فلسفي صحيح ، امكنا ان نسبر بنجاح غور اسرار الطبيعة . اما اذا لم يكن الطريق او المنهج الذي وقع عليه الاختيار هو الطريق او المنهج الصحيح ، فاننا نجازف على العكس بأن نتيه ونضل عن الهدف ، اي نجازف بالا نعلم اي شيء اكيد عن الطبيعة .

لكل علم مناهجه الخاصة . فالبيولوجيا ، على سبيل المثال ، تعتمد الملاحظة والتجريب . ومهمة الفلسفة ان تدل الى الطريق ، الى المنهج الواجب استخدامه لا لدراسة هذه الظاهرة او تلك ، وانما لدراسة ظاهرات الكون قاطبة . وعليه فان مهمة الفلسفة ان تقدم منهجا فلسفيا عاما للمعرفة ، تستطيع ان تستخدمه العلوم جميعا ، علاوة على المناهج الخاصة التي تملكها .

ما هي اذن مناهج المعرفة التي انشأتها الفلسفة عبر تاريخها كله ؟ ثمة منهجان فلسفيان ، طريقان لدراسة الظاهرات واحدهما يقضي بالنظر الى الاشياء كافة والظاهرات جميعا من خلال تغيراتها المتصلة ، من خلال تطورها . وهذا المنهج يسمى **جدليا** . وقد كان للفظ «الجدل» في العهد الغابرة معنى مغاير

لمعناه اليوم . فقد كان فلاسفة اليونان القديمة يعنون بالجدل الحوار ، النقاش الذي تتضح من خلاله الحقيقة للعيان في معترك اختلاف الآراء . اما اليوم فالمقصود بالجدل **منهج فلسفي يدرس الواقع في صيرورته الدائمة ، في حركته** . كان هيراقليطس ، فيلسوف اليونان القديمة ، يقول : كل شيء يمضي ، كل شيء يتغير .

اما المنهج الفلسفي الآخر فيقضي بالنظر الى الاشياء كافة والظواهرات جميعا بصفتها ثابتة ، ساكنة ، جامدة . انه المنهج **الميتافيزيقي** . والجدل والميتافيزيقا ، كما هو ظاهر للعيان ، منهجان مختلفان ، بل متعارضان ، لمعرفة العالم . فأي هذين المنهجين الفلسفيين هو الاصح ، وايهما الاكثر علمية ؟ انه بلا نزاع ذلك الذي يقضي بالنظر الى الاشياء كلها في تطورها ، اي المنهج الجدلي . انه مطابق للواقع بالذات ، ويؤكد صحته العلم والتجربة . فالحياة ليست ساكنة ، وانما هي تتغير وتتطور . فعلى سبيل المثال كان الانكليز والفرنسيون ما يزالون الى عهد قريب يتقاسمون افريقيا ؛ لكن العديد من الدول الافريقية فازت اليوم باستقلالها ، وحطمت أغلال الاستعمار ، وتكافح فسي سبيل مستقبل سعيد لشعوبها . وهذا تطور ، ارتقاء ، تقدم في حياة الشعوب . وظواهرات الطبيعة تتطور بدورها . الجدل اذن يدل الى الطريق الصحيح لدراسة ظواهرات الطبيعة والمجتمع كافة .

بيد انه ينبغي ان نلاحظ ان الجدل لا يكون علميا فعلا الا اذا اتحد عضويا بالمادية . وهذا الاتحاد بين الجدل والمادية يتحقق في الفلسفة الماركسية ، في المادية الجدلية .

٢ - نشوء المادية الجدلية

تمت صياغة فلسفة الماركسية ، المادية الجدلية ، على أيدي

المنظرين الكبيرين للحركة العمالية كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) وفريدريك انجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) ، ثم اكملها قائد الشفيلة فلاديمير لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) . ولا يعرف التاريخ شخصيات مارست من عظيم التأثير على تطور الثقافة ومصائر الانسانية قاطبة ما مارسه كارل ماركس وفريدريك انجلز وفلاديمير لينين ، جبايرة الفكر الانساني والعمل الثوري . وقد تكهنوا ، وانظارهم شاخصة الى المستقبل ، بما ستكونه مصائر الشعوب ، ودلوا هذه الاخيرة الى الطرق الواجب نهجها والوسائل الواجب استخدامها للفوز بحياة حرة وسعيدة على الارض .

طفق مذهب ماركس وانجلز الفلسفي يتكون في اواسط القرن الماضي ، تحت تأثير حركة العمال الناشئة في سبيل انتاقهم الاقتصادي والسياسي .

في الثلاثينات والاربعينات من القرن التاسع عشر ، بدأت البروليتاريا تتدخل كقوة مستقلة . ففي انكلترا شن العمال نضالا جماهيريا في سبيل حقوقهم السياسية ، عرف باسم الحركة الميثاقية (١) . وفي فرنسا كان تمرد النساجين (٢) ، وفي المانيا كان تمرد الحاكة في سيليزيا . وقد كانت هذه المعارك الطبقيه الاولى بين العمل والراسمال اشارة الى بداية نضال الطبقة العاملة في سبيل انتاقها .

هكذا يفرس مذهب ماركس وانجلز جذوره في الكفاح الذي خاضته البروليتاريا للانتعاق من الاستغلال والاضطهاد . وقد غدا هذا المذهب التعبير الواعي عن المصالح الحيوية للطبقة

١ - او الحركة الشاربية . «م»

٢ - الاشارة الى ثورة عمال الانوال اليدوية لنسج الحرير في مدينة

ليون في عامي ١٨٣١ و ١٨٣٤ . «م»

العامة ، وبرنامج نضالها في سبيل الاشتراكية . وقد هدى البروليتاريين في الاقطار كافة الى الطريق الوحيد الواجب سلكه للانعتاق من نير العبودية الرأسمالية .

لم ير مذهب ماركس وانجلز النور بمنأى عن حركة الثقافة العالمية ، بل كان الوريث الشرعي لخير ما ابدعته الانسانية الطبيعية . كانت الفلسفة قبل ماركس وانجلز قد اعطت الناس تصورا ماديا عن الطبيعة ونظرية في التطور (الجدل) . وقد تجلى هذان الانجازان العظيمان للفكر الفلسفي على أسطح نحو في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في الفلسفة الالمانية . وكان المتقدمون المباشرون على ماركس وانجلز في المضمار الفلسفي هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١) ، الفيلسوف المثالي الالمانى ، وفيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢) ، الفيلسوف المادي الالمانى .

كان مذهب هيغل الفلسفي يستمد قيمته من كونه يتضمن فكرة التطور والارتقاء : الجدل . وكانت فلسفة فيورباخ تتضمن أوضح عرض يومئذ للتصور المادي عن الطبيعة . وقد عبر لودفيغ فيورباخ بقوة جديدة عن ضرورة مكافحة المثالية والدين .

منذ نهاية القرن الثامن عشر ، وتحت تأثير حاجات الانتاج الرأسمالي ، تطورت العلوم بسرعة . فالفيزياء على سبيل المثال درست بنجاح الحرارة والمغناطيسية والكهرباء . وحددت الكيمياء خواص العديد من العناصر والتراكيب الكيماوية . كذلك اصابته حظا كبيرا من التقدم الجيولوجيا ، العلم الذي يدرس اصل باطن الارض وبنيتها .

وقد توجت هذه النجاحات بثلاثة اكتشافات كبرى .
اولا ، الخلية . فقد أوضح العلماء أن جميع أعضاء الحيوانات والنباتات تتألف من خلايا متنوعة . وقد اقام هذا الاكتشاف البرهان على وحدة بنية الطبيعة الحية .

ثانيا ، قانون بقاء الطاقة (١) وتحولها ، وهو من اهم قوانين الطبيعة . وبمقتضى هذا القانون لا يمكن للطاقة ، شأنها شأن ركيبتها - المادة - لا ان تخلق ولا ان تفتنى . وما تفعله فسي شروط معينة هو انها تتحول ، تنقلب من شكل الى آخر . الطاقة الميكانيكية ، على سبيل المثال ، تنقلب الى طاقة حرارية في حال الصدام او الاحتكاك . وتتحول الطاقة الحرارية لبخار المرجل الى طاقة ميكانيكية في العنفة كي تتحول من ثم في المنوبة السى طاقة كهربائية . وقد اظهر هذا الاكتشاف الصلة الوثقى بين مختلف اشكال الطاقة .

ثالثا ، ظهر مذهب عالم الطبيعيات الانكليزي تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) بصدد أصل الأنواع . وقد سدد داروين ضربة قاصمة الى التصور الميتافيزيقي ، المنافي للجدل ، عن الطبيعة الحية . وقد اثبت ان جميع النباتات وجميع الحيوانات والانسان قد ظهوروا عقب ارتقاء دام ملايين السنين .

تكن اهمية هذه الاكتشافات الكبرى ، في المقام الاول ، في كونها قد نسفت المنهج الفكري الميتافيزيقي الضيق الذي كان يعتمد على العلماء في ذلك العهد . وقد اتاحت هذه الاكتشافات امكانية رؤية الطبيعة من وجهة نظر جديدة . فعلى ضوءها ما عادت الطبيعة تبدو ساكنة جامدة . وصار بيئنا للعيان ان الطبيعة بكاملها - بدءا من اصغر الجزيئات الى اكبر الاجرام السماوية ، وبتدءا من حبة الرمل الى الشمس والنجوم ، وبتدءا من الخلية الحية البدائية الى الانسان - تتحرك وتتبدل دوما وابتدا .

ابان العلم التاريخي بدوره عهدئذ ان الحياة الاجتماعية ليست

١ - الطاقة ، خاصة اساسية من خواص المادة : قدرة العمل على الانتاج . وهي مقياس حركة المادة .

هي الاخرى ساكنة ، بل هي قيد التبدل والتحول . فالمجتمع مؤلف من طبقات متصارعة . وعلى هذا الاساس حدثت الثورات البورجوازية التي وضعت حدا ، في انكلترا وفرنسا ، للنظام الاقطاعي القديم . خلاصة القول ، ابانت مسيرة تقدم علم الطبيعة والمجتمع ان التصور الميتافيزيقي عن العالم قد دالت دولته ، وأن ثمة حاجة لاستبداله بتصور جديد ، جدلي .

لقد تمثل ماركس وانجلز كل ما أبدعه العلم قبلهما وكل ما هو قيّم فيه . لكنهما لم يكتفيا بمجرد تمثيل منجزات العقل الانساني ، بل أعادا التفكير بروح نقدية في جميع فتوحات الفكر الانساني الطبيعي ، وفقا لمصالح واهداف البروليتاريا والشفيلة قاطبة . وأنجزا كثورين كبيرين ماثرة علمية منقطعة النظر ، ثورة في العلم ، في الفلسفة ، في الاقتصاد السياسي ، في المذهب الاشتراكي ، وفي سائر ميادين المعرفة ؛ وأبدعا علما ثوريا جديدا : الماركسية .

لقد كانت واحدة من أبرز نتائج الثورة التي قام بها ماركس وانجلز انشاءهما لفلسفة الماركسية : المادية الجدلية . ولقد كانت رؤية جديدة ، وثورية ، للعالم .

قال ماركس : في السابق لم يفعل الفلاسفة شيئا ، بصورة او بأخرى ، سوى انهم فسروا العالم . والحال ان المطلوب تحويله . صحيح ان البورجوازية الامبريالية غير معنية بتغيير العالم . فهي قد تربعت على سدة السلطة ، وفي نيتها تأييد النظام الراسمالي . لكن البروليتاريا والشفيلة اجمعين معنيون ، على العكس من ذلك ، وبصورة حيوية ، بتبديل العالم القديم وبناء مجتمع اشتراكي بلا طبقات . وهدفهم لا يعاكس مسيرة المجتمع الماضية قدما الى الامام ، بل يتطابق تمام التطابق مع قوانين التاريخ . والبروليتاريا ، وهي اكثر طبقات المجتمع تقدما وثورية ودليل الشفيلة ومرشد المضطهدين ، هي المؤهلة

لان تكون خالقة مجتمع اشتراكي جديد . لقد كانت الفلسفة القديمة لا تصلح لخدمة هذا الهدف . فقد كانت منفصلة عن حياة الشعب وعن مصالح الجماهير الكادحة . وللوصول الى الهدف الكبير الذي تكافح البروليتاريا في سبيله ، لم يكن هناك بد من فلسفة ثورية جديدة تساعد البروليتاريا لا على تفسير العالم تفسيراً صحيحاً فحسب ، بل تكون ايضا بين يديها بمثابة سلاح روحي موثوق لتحويل العالم ثوريا . ولقد كانت فلسفة الماركسية ، المادية الجدلية ، هي بالضبط ذلك السلاح الروحي في ايدي الشغيلة .

لقد كان ماركس وانجلز يدركان تمام الادراك انه لا مجال ، اثناء عملية ابداع تصور ثوري جديد عن العالم ، لنبد الفلسفة القديمة ولفظها جملة وتفصيلا . فهذا شيء غير معقول . لكن لم يكن هناك بد من اعادة النظر فيها باتجاه نقدي ، والحفاظ على منجزات الفكر الانساني الطبيعي : التصور المادي عن الطبيعة ، ومذهب التطور والارتقاء (الجدل) . ولم يكن من سبيل الى ذلك الا بالتغلب على نواقص الفلسفة القديمة وحدودها التي أضحت عقبة امام تقدم الفكر الانساني .

فيم كانت تكمن اذن تلك النواقص وتلك المحدودية ؟ كانت المادية القديمة ميتافيزيقية . كانت ترى الى الطبيعة على انها ساكنة ، ثابتة . من ذلك ، على سبيل المثال ، انه هم كانوا في القرنين السابع عشر والثامن عشر يعتبرون ان الشمس والكواكب وأفلاكها لا تتعرض لاي تغير . وكان التصور عينه عن الطبيعة الحية قد رسخ في الاذهان .

ما كان الماديون القدامى ، بما فيهم فيورباخ ، يقيمون وزنا للدور الهائل الذي يلعبه نشاط الناس العملي . ما كانوا يرون سوى فعل الطبيعة في الانسان ، من غير ان يلحظوا فعل الانسان في الطبيعة . علما بأن بني الانسان لا يكتفون بتأمل العالم الخارجي ، بل يؤثرون ويفعلون فيه ، ويغيرونه . بنو الانسان

يجودون الانتاج على سبيل المثال باستمرار ، ويصنعون أدوات عمل وآلات ومعدات جديدة . كذلك تراهم يغيرون النظام الاجتماعي ، فيستبدلون الانظمة البالية بأخرى جديدة .

كيف نفسر ذلك العيب الجوهرى فى المادة القديمة ؟ نفسره بكون هذه الاخيرة غير متماسكة وغير كاملة . فممثلوها ما كانوا ماديين الا فى تأويل ظاهرات الطبيعة ، لكنهم لبثوا فى مواقع المثالية فيما يتعلق بظاهرات الحياة الاجتماعية . حين كانوا يرون الى ظاهرات الطبيعة كانوا يقدرون بحق ان الطبيعة معطى اول ، وأن الوعى معطى ثان ، مشتق . لكن حين يكون المطلوب تفسير ظاهرات الحياة الاجتماعية ، كانوا يبتعدون عن أرضية المادية : كانوا لا يتبينون العلل المادية ، الطبيعية ، لتطور المجتمع ، فيحاكمون الامور محاكمة مثالية . كانوا يفترضون ، على سبيل المثال ، ان آراء الناس و«الشخصيات القوية» و«رغائبهم ومشيتهم هي محرك التقدم الاجتماعي، اي انهم ما كانوا يعترفون الا بالدوافع المثالية لتطور المجتمع ، وليس البتة بالدوافع الموضوعية ، المادية . ويقدم لنا فيورباخ على ذلك مثالا نموذجيا . فقد كان يعتبر الطبيعة معطى اول ، والوعى معطى ثانيا . وانطلاقا من هذه المبادئ كان ينتقد المثالية والدين . وبالمقابل ، حين كان يفسر ظاهرات الحياة الاجتماعية : الدين ، الاخلاق ، العلاقات بين الناس ، الخ ، كان ينطلق من مبادئ المثالية . فعلى سبيل المثال ، بدلا من ان يأتي بتفسير صحيح لظاهرة اجتماعية محددة كالاخلاق استنادا الى الشروط الفعلية التي يعيش فيها الناس ، كان ينطلق من وجهة النظر القائلة ان الناس يتمسكون بأفكار اخلاقية ابدية وثابتة ، مستقلة عن الشروط المادية لحياتهم . كان ذلك تصورا مثاليا عن الحياة الاجتماعية ، لانه كان يؤكد ان الافكار والمبادئ الاخلاقية مستقلة عن الوجود والموجودات .

بناء عليه ، كان نقد نواقص المادية القديمة وتجاوزها شرطين لازمين لانشاء المادية الجدلية . وفى الوقت الذي حافظ فيه

ماركس وانجلز على الاساس المادي للفلسفة القديمة ، اي على التصور المادي عن الطبيعة ، تجاوزاه الى ما هو ابعد منه . فقد اعتبرا ان مهمتهما هي اكمال بناء المادية ، وسحبها على الحياة الاجتماعية ، واعطاء الانسانية تصورا ماديا علميا للتاريخ . ولانجاز هذه المهمة كان لا بد من انشاء جدل ثوري ، اي مذهب للتفسير كامل بقدر الامكان ، ودمج المادية بالجدل في مذهب واحد متناهي - المادية الجدلية - وتطبيقها على تاريخ المجتمع .

ماذا كان اذن وضع الجدل في الفلسفة القديمة ؟ كان الجدل والمادية يسلكان ، بوجه عام ، دروبا متباينة . فقد لبثت المادية ميتافيزيقية ، منافية للجدل ، بينما راح الجدل يتطور في اطار مثالي ، وبخاصة في مذهب هيغل . ونتيجة لذلك ، كان الجدل ينطوي على نواقص خطيرة لا مناص من التغلب عليها وتجاوزها .

لقد تمثل الجدل في وجهه الاكثر تطورا في مذهب هيغل الفلسفي . لكن عيب جدله كان يكمن في خضوعه التام للمثالية . وترتب على ذلك ان الجدل لم يكن مطبقا الا على تطور الفكرة ، على الوعي . ويذهب هيغل الى ان الفكرة والروح هما وحدهما اللتان تتطوران وتنتقلان من حالة الى اخرى ؛ اما فيما يتعلق بالطبيعة ، التي كان هيغل يعدها واحدة من مراحل تطور الفكرة ، فما كانت تتطور في الزمن ، اي لم يكن لها تاريخ خاص بها . كان من الواجب اذن لا التغلب على العيب الجوهرى في الجدل الهيجلي فحسب ، بل ايضا اكتشاف ما هو ثمين وتقدمي فيه والحفاظ عليه . وقد حطم فيورباخ نظام هيغل ، ونبذ جملة وتفصيلا .

لقد اقتضى الامر عبقرية كعبقرية ماركس لانقاذ النواة العقلانية في جدل هيغل . وكانت هذه النواة العقلانية تتمثل في التوكيد بان كل ما في العالم يتبدل ويتطور ، وبان اصل هذا التطور يكمن في التناقضات الباطنة . لكن لفصل هذا المذهب

التقدمي في التطور عن قشرته المثالية ، كان لا بد من اعادة النظر في جدل هيغل رأسا على عقب ، وتحويله الى جدل مادي ، واعطائه شكلا علميا حديثا . والحال ان ذلك ما كان ممكنا الا بالارتكاز الى منجزات الممارسة الثورية والعلم .

ان تطبيق ماركس وانجلز لمنهجهما الجدلي على دراسة الطبيعة والحياة الاجتماعية قد اتاح لهما انشاء مذهب فلسفي تتحد فيه **المادية والجدل** اتحادا وثيقا لا يقبل **فككا** . هكذا ابتدعت **المادية الجدلية** ، تصور العالم الجديد ، الثوري ، الصحيح وحده دون غيره ، المستجيب كل الاستجابة لمصالح واهداف نضال الشفيلة في سبيل انعتاقهم . والمادية الجدلية في ايماننا هذه سلاح ايدولوجي موثوق ، يساعد بني البشر على بناء حياة جديدة . ماذا تمثل اذن المادية الجدلية ؟ ماذا تعلمنا؟ سنجد الجواب على هذا السؤال في العرض التالي .

الفصل الثاني

المادة وأشكال حركتها

ما المادة ؟

ان مذهب المادة هو حجر الزاوية في المادية . الحياة ، التجربة اليومية تقنعاننا بأن للعالم وجوده الموضوعي ، المستقل عن الانسان ووعيه واحساساته ورغائبه . والعلم يؤكد الشيء ذاته . فقد اثبت ان الارض تكونت قبل حقبة طويلة من ظهور الانسان ، بل حتى قبل حقبة طويلة من ظهور اي عضوية حية ، وعليه فقد كان لها وجودها المستقل عنهما . وبحسب معطيات العلم ، وجدت الارض قبل ٥ مليارات من السنين . أما الانسان فلم يظهر عليها الا قبل زهاء مليون سنة . وموضوعية العالم ،

اي وجوده خارج الوعي ومستقلا عنه ، تستتبع انه مادي .
ان كمية لا محدودة من الاشياء والظواهرات تحيط بنا .
الاحجار والاشجار ، حبات الرمل والشمس ، الحيوانات ،
المحيطات والصحارى ، النجوم والكواكب ، الخ . ونحن نشير
الى هذا كله بكلمة واحدة : المادة . واسماء الجنس مثل
«المادة» تسمى بالمفاهيم .

تشمل بعض المفاهيم قطاعا واسعا من الاشياء والظواهرات ،
ويشمل بعضها الآخر قطاعا أصغر . وهكذا نجد ان مفهوم
«الشيء» أوسع من مفهوم «الريشة» او «الطاولة» .

هل هناك مفاهيم واسعة الى اقصى حد ممكن ؟ اجل . اذا
كان المفهوم يشمل الاشياء والظواهرات كافة ، بدءا من حبة الرمل
الى الدماغ البشري ، فان هذا النوع من المفاهيم سيكون هو
الأوسع والأشمل .

ذلك هو حال مفهوم «المادة» . ويترتب على ذلك ان «المادة»
هي ايضا مفهوم ، مثلها مثل «الشيء» ، لكنها مفهوم واسع
ل للغاية ، أوسع المفاهيم طرا . وهو يتميز عن المفاهيم العادية
بكونه يعبر عن السمات الأكثر جوهرية والأكثر عمومية لا لفئة
بعينها من الاشياء ، وانما للاشياء جميعا ، للظواهرات طرا في
العالم ، لكل ما يحيط بنا . وهذه المفاهيم الأوسع والأشمل
تسمى ايضا بالمقولات الفلسفية .

ما هي اذن تلك الخواص العامة والجوهرية المحايثة للاشياء
طرا ؟ ان الاشياء هي جميعها ، في المقام الاول ، مادية ، ذات
وجود موضوعي ، اي خارجي عن وعي الانسان ومستقل عنه .
وللاشياء ايضا خاصية هامة . فحين نفتسل بالماء الساخن ،
على سبيل المثال ، نشعر باحساس بالحرارة . وحين نراقب
الاشجار في غابة ، نرى لون الاوراق الاخضر . ويترتب على
ذلك ان الاشياء ، التي لها وجودها المستقل عنا ، تمتلك خاصية

الفعل في اعضاء حواسنا وإثارة الاحساسات . نحن نطلق اذن اسم المادة على كل ما يحيط بنا ، على كل ما له وجود موضوعي ، على العالم الخارجي الذي يؤثر في اعضاء حواسنا ويشير الاحساسات . حدد لينين في مؤلفه «المادية والتجريبية النقدية» مفهوم المادة على النحو التالي : «المادة مقولة فلسفية تفيد في تسمية الواقع الموضوعي المعطى للانسان في احساساته»
المادة هي ما يفعل في اعضاء حواسنا ، فينتج احساسات ؛ المادة واقع موضوعي معطى لنا في الاحساسات ، الخ» .

يمكننا القول بيقين وثقة ان ما من مفهوم فلسفي تعرض لهجمات عنيفة من جانب المثاليين كمفهوم المادة . والى الآن يبذل المثاليون قصارى جهدهم لافراغه من مضمونه . وهم يلجؤون الى جميع الحيل الممكنة ، ويزورون العلم الحديث ، ويسعون الى اقامة البرهان على انه لا وجود للمادة ، على انها قد «اضمحت» ، على انها «غير كائنة» . لكن كيف يمكن للعالم ان يضمحل ؟ ان المثاليين يجهدون على كل حال لاعطاء حججهم طابعا مقنعا بقدر الامكان . وما داموا «يبنون» حججهم على «اساس» بعض اكتشافات الفيزياء الذرية ، فلنتوقف عندها مليا .

لفهم العرض التالي ينبغي ان نأخذ في اعتبارنا ان العلماء والفلاسفة كانوا يقصدون في الماضي بكلمة «مادة» نوعا محددا من المادة ، وعلى سبيل المثال الذرات التي تتألف منها الاجسام كافة ، ولا يعنون بها مقولة فلسفية . وفي علم القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت الذرات تعتبر غير قابلة للقسمة ، وغير قابلة للتدمير ، وكأنها اللبنة الاخيرة للكون ، اللبنة التي منها يتكون العالم قاطبة .

في اواخر القرن التاسع عشر تم التوصل الى ضرورة نبذ فكرة عدم قابلية الذرة للانقسام . فالذرة قابلة للقسمة . ولن نعرض بالتفصيل الاكتشافات العلمية للفيزياء الذرية . انما يهمنا هنا التنويه بشيء آخر : فقد رجع المثاليون الى هذه

الاكتشافات كي يخلصوا منها الى استنتاج يقول ان المادية قد
شهرت افلاسها . وقد اجروا محاكماتهم العقلية على النحو
التالي تقريبا : كانت الذرة غير القابلة للقسمة تعد اساس المادة،
والحال انه ثبت ان في الامكان قسمها وتجزئتها . اذن فالقاعدة
التي كان يقوم عليها بناء المادية بالذات قد انهارت . لكن هذه
التوكيدات لا تنطوي الا على ظاهر من الحقيقة .

ماذا حدث في العلم اذن في نهاية القرن التاسع عشر وبداية
القرن العشرين ؟ تم التوصل الى معارف جديدة . في الماضي ما
كان معروفا ان الذرة قابلة للقسمة وأنه توجد كهارب *électrons*
وايونات *Protons* ونواة ذرية ، واليوم اضحى ذلك
معلوما . وجميع هذه المعطيات قامت شاهدا على واقع ان التصور
العلمي الذي كنا نكوته عن العالم وعن بنية المادة قد طرأ عليه
تعديل .

لقد علمنا العلم الحديث اشياء كثيرة عن بنية المادة . ولئن
كنا لا نعرف في فجر تلك الاكتشافات سوى جزيئين او ثلاثة من
المادة ، فقد تحققت اليوم من هوية زهاء ثلاثين جزيئا . لكن الهم
من ذلك كله ، والعلم يؤكد ، يكمن في كون هذه الجزيئات ذات
وجود مستقل عن وعينا . فهي مادية ، شأنها شأن الذرة تماما .
لا مجال للقول اذن بـ «اضمحلالها» .

تظهر لنا تلك الاكتشافات العلمية على نحو حاسم قاطع انه
لا يجوز الخلط بين المادية الميتافيزيقية والمادية الجدلية . فالمادة
في منظور المادية الميتافيزيقية هي الذرات الثابتة غير القابلة
للتدمير . اما المادية الجدلية فتنتطق من المبدأ الذي ينص على انه
لا يجوز اختزال المادة الى لبنة اخيرة - الذرة - ولا ان تعزى
اليها خاصية «ابدية» كائنة ما كانت . فالمادة ليست ذات
خاصية واحدة يتيمة ، وانما خواصها كثيرة لامتناهية : فأشياء
العالم متنوعة ، ومتنوعة كذلك خواصها .

لهذا لا يجوز الخلط بين علم بنية المادة وبين المفهوم الفلسفي للمادة كواقع موضوعي . ان اكتشافات العلم تطلعتنا على بنية المادة : الذرات ، الكهارب ، او سائر الجزيئات التي تتكون منها . اما الفلسفة فتجيب على سؤال آخر: هل للعالم ، وبالتالي لهذه الجزيئات ، وجود موضوعي ، خارج وعي الانسان ؟ واذا كان الجواب بالايجاب ، فكائنة ما كانت الجزيئات الجديدة التي يكتشفها العلم (وهو يكتشف المزيد منها باستمرار) ، فانها لا تصلح لدحض المادية ، لان هذه الجزيئات مادية ، ذات وجود موضوعي ، مستقل عن الانسان .

مهما تغيرت تصوراتنا ، فلن تكون مؤهلة للشهادة على «اضمحلال المادة» . فالمادة ، بصفاتها واقعا موضوعيا ، تتلقى توكيدا جديدا في مكتشفات العلم . وتصوراتنا عن بنية العالم ، عن صورته العلمية ، هي وحدها التي تتغير .

بيد ان مبدأ ازلية المادة هو بالتحديد الذي يستثير الاسئلة في كثير من الاحيان . فالانسان يرى ، اثناء حياته ، ان لكل شيء بداية ونهاية . من الطبيعي اذن ان يتساءل : من خلق المادة ؟ والعلم يجيب : انها موجودة من الازل . وقانون بقاء المادة توكيد لذلك .

لنبدا بمثل عادي . اذا رمينا بقطعة خشب الى النار ، لا يبقى منها سوى رماد قليل . لقد اختفى الخشب ، استهلك . لكن ليس من الصعب ان نلاحظ ان الخشب بعد احتراقه لم يختف من دون ان يخلف اثرا : فقد تحول الى مواد اخرى تتميز عن قطعة الخشب المحروقة .

كان العالم الروسي الكبير م . لومونوسوف (١٧١١ - ١٧٦٥) قد ركز فيما سلف انتباهه على وقائع مماثلة . وخلص من ذلك الى الاستنتاج بأنه ما من جسم ، ما من عنصر في الطبيعة يتلاشى تماما ، من غير ان يترك اثرا ، وانه لا يستطيع الانبعاث من العدم . وقد صاغ لومونوسوف هذه الافكار في القانون

المعروف ، قانون بقاء المادة . ويترتب على هذا القانون انه لا شيء في الطبيعة ينبجس من العدم ، ولا شيء يبيد نهائيا : انما الكل في تحول .

ان قانون الطبيعة الهام هذا يظهر للعيان ان القصة التوراتية عن خلق العالم متهافئة المنطق . فلئن سلمنا بأنه مر حين من الدهر لم يكن فيه في العالم شيء ، اي لم يكن فيه مادة ، فمن أنى امكن لها والحالة هذه ان تولد ؟ لكن ما دامت المادة موجودة، فهذا معناه انها وجدت ازلا ، وستبقى موجودة ابدا .

المادة والحركة لا تنفصلان •

ان الشيء الساكن ، الحجر مثلا ، لا يتحرك ما لم يحرك . لكن لو «القينا نظرة خاطفة» الى داخل الحجر الساكن ، للاحظنا فيه ضربا من الحركة : فالذرات والدقائق والكهارب - الموجودة كما هو معروف في كل جسم - تتحرك فيه باستمرار ، كما تحدث فيه عملية تدمير بفعل الرطوبة والشمس والهواء . كذلك فان المنزل لا يبقى ساكنا هو الآخر ، وانما يدور مع الارض حول الشمس . وحين نجلس ساكنين ، لا نتحرك . لكن دمنا يجري، وتبدلات معقدة تطرا على جسمنا : فثمة خلايا جديدة تولد ، وهرمة تموت . وهذه ايضا حركة .

لنأخذ ، على سبيل المثال ، الحرارة . فمن الثابت انها نتيجة حركة عدد كبير من الدقائق . ولنأخذ ، على سبيل المثال ، الماء . فهو يسخن بفضل تحرك دقائقه . اما التيار الكهربائي فهو حركة الكهارب . والتفاعل الكيميائي - الحركة ، تراكب الدوائف ions - عملية اكثر تعقيدا ايضا . كذلك فان العضوية الحية هي بدورها قيد حركة ذاتية . وفي المجتمع

الانساني تحدث باستمرار تغيرات : فالانظمة الاجتماعية تتبدل ، والناس انفسهم يتغيرون ، وسيماؤهم الاخلاقية وتصورهم عن الاحداث يتعدلان .

ما الاستنتاج الذي ينبغي الخلوص اليه من ذلك ؟ هو ذلك الذي ينص على انه توجد في العالم انواع متباينة من الحركة . فهناك ، اولا ، تحرك اجزاء المادة ، الاجسام ، اي الشكل الميكانيكي للحركة . ثانيا ، السرورات الحرارية والكهربائية ، اي الشكل الفيزيائي للحركة . ثالثا ، تراكب الدوالف وانشطارها ، وهما يمثلان الشكل الكيميائي للحركة . رابعا ، ان التغيرات التي تطرا على العضويات الحية هي الشكل البيولوجي للحركة . خامسا ، هناك الشكل الاجتماعي للحركة ، اي التبدلات التي تطرا على الحياة الاجتماعية .

كان انجلز يقول ان الحركة تضم في ذاتها جميع التغيرات والعمليات التي تحدث في الكون ، بدءا من الانتقال البسيط ووصولا الى الفكر . ويترتب على ذلك ان كل تغير يحدث في داخل الاشياء ، اي في العالم ، ينبغي ان يعد حركة . ان الحركة هي تغير المادة بوجه عام .

هل يمكن ان توجد المادة في حالة لا يطرأ عليها فيها اي تغير؟ بديهي ان لا . فحتى في الازمان الاولى ، حين لم يكن على الارض بعد لا ناس ولا حيوانات ولا خلية حية ، حدثت تغيرات في قلب المادة . وبالفعل ، تتألف الاجسام من ذرات ودقائق هي ابدا ودوما قيد الحركة . اذن لم يوجد قط ولا يوجد ولن يوجد ابدا جسم جامد ، ساكن مطلق السكون . والذرات والدقائق والكهارب قد وجدت على الدوام ، وبالتالي وجد على الدوام ايضا الشكل الكيميائي للحركة .

هذا يعدل القول بانه لم توجد قط حالة كانت فيها المادة بلا حركة . ولهذا يقال ان الحركة هي شكل وجود المادة . الحركة هي الخاصية التي لا تبلى للمادة . لا وجود لمادة بلا

حركة ، ولا وجود لمادة الا قيد الحركة .
هل يعني ذلك ان المادية الجدلية تنفي السكون ؟ كلا .
فالسكون موجود في الطبيعة . لكنه نسبي . وهذا يعني انه لا
وجود لظواهرات يكون فيها كل شيء في حالة سكون ، ولا يكون
فيها وجود لاي حركة .

اذا كان جسم من الاجسام قيد الحركة ، فانه لا يكون كذلك
الا نسبة الى شيء ما . ففي قطار قيد الحركة ، على سبيل
المثال ، نكون نحن في حالة سكون نسبة الى ذلك القطار ، لكننا
نتحرك مع القطار عينه .

ان التصور الجدلي عن السكون يتميز جوهريا عن التصور
المتافيزيقي . فالمتافيزيقيون يتصورون السكون انعداما لكل
حركة . وانما على مثل هذا التصور تعترض المادية الجدلية .
في الطبيعة ، ليس السكون هو الذي يلعب الدور الرئيسي ،
على الرغم من وجود السكون النسبي ، وانما تلعبه الحركة ،
التغير ، التطور . ونفي الحركة بصفتها خاصية المادة يفضي الى
الاقرار بوجود إله . فبعض الفلاسفة في الاقطار الرأسمالية
يعلنون ، على سبيل المثال ، ان التغير يستتبع وجود إله ، محرك
للطبيعة . لكن سبق ان رأينا ان المادة في غنى عن «محرك» .
فالحركة محايدة لها . والتساؤل عن اصل ما هو موجود منذ
الازل تساؤل غير ذي معنى .

الزمان والمكان ،

شكلا وجود المادة .

للاجسام كافة مدى ، حجم ، اي ابعاد ثلاثة: العرض والطول
والارتفاع ، وهي تشغل مكانا محددا . ثم ان الاجسام جميعا هي

بالنسبة الى بعضها بعضا في نظام معين ، بصورة او بأخرى :
عن قرب او عن بعد ، عن علو او عن انخفاض ، من اليمين او من
اليسار . وهذا يعني ان الاجسام موجودة في المكان ، ولا يمكن
ان توجد على نحو آخر . لكن سبق ان علمنا ان جميع الاشياء في
العالم تؤلف ما يسمى بالمادة . يترتب على ذلك ان المادة لا يمكن
ان توجد الا في المكان . ولهذا كان المكان واحدا من اشكال
وجود المادة .

الظواهرات جميعا تتغير ، تتحرك ، تتطور دوما وأبدا . علاوة
على ذلك ، تتعاقب الظواهرات جميعا في العالم وتتوالى بنظام
معين : النهار يعقب الليل ، الاشتراكية تخلف الرأسمالية ، الخ .
حدث من الاحداث يقع مبكرا ، وحدث آخر يأتي متأخرا .
الاحداث جميعا لها ايضا ديمومة معينة . هذا التغير وهذا
التطور ، هذا التعاقب للاحداث وفق تسلسل معين وديمومتها ،
كل ذلك لا يمكن ان يتم الا في الزمان .

اذن فكل ما يجري في العالم يحدث في الزمان . لهذا كان
الزمان ايضا شكلا لوجود المادة . كتب لينين يقول : «ما الكون
الا مادة في حركة ، وهذه المادة قيد الحركة لا يمكن ان تتحرك الا
في المكان وفي الزمان» .

المكان شكل لوجود المادة ، يحدد وضع الجسم المادي وأبعاده
وحجمه . اما الزمان فيحدد مظهرا آخر لوجود المادة وتطورها :
تعاقب وديمومة التغيرات التي تطرأ على الاجسام المادية . مفهوم
اذن الا تكون خواص المكان والزمان واحدة . فما خواص كل من
المكان والزمان ؟

للمكان أبعاد ثلاثة . اي ان الطول والعرض والارتفاع تحدد
المكان تحديدا كاملا . واهم سمة للمكان انه ذو أبعاد ثلاثة .
يعلم كل واحد منا ان تغير الظواهرات في الزمن يتم فسي
اتجاه واحد : من الماضي الى الحاضر نحو المستقبل . وليس
للزمان مجرى معاكس . في القصص والروايات العلمية الخيالية

وحدها ابتكر البشر آلة السفر في الزمان ، تلك الآلة التي تدور عقاربها بالاتجاه المعاكس . ومن المستحيل تكرار جميع أدوار حركة من الحركات بالاتجاه المعاكس . وعليه ، ان اهم خاصية للزمان هي انه ذو اتجاه واحد ، لا ينعكس الى الوراء .

اذا احتل شيء ما محله في المكان ، فان ذلك يمكن ان يتم الان ، ويمكن ان يكون تم بالامس ، وبالاختصار في لحظة معينة . الشيء يتموضع في المكان وفي الزمان معا . اين ؟ متى ؟ هذان سؤالان وثيقا الارتباط . وهما يعينان تاريخ الحدث وموقعه في المكان .

الزمان والمكان مترابطان اذن ترابطا لا يقبل فكاكا . وما من سبيل الى فصل واحدهما عن الآخر . فالمكان لا يمكن ان يوجد خارج الزمان ، مثلما لا يمكن للزمان ان يوجد خارج المكان . وما دامت المادة موجودة في المكان والزمان ، فلا سبيل الى فصل المكان والزمان واحدهما عن الآخر ، ولا عن المادة كذلك .

حتى مطلع القرن العشرين كان العلم يتمسك بوجهة نظر العالم الكبير نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) التي كانت تقول ان المكان والزمان لهما وجودهما المستقل عن المادة . المكان في نظر نيوتن أشبه ما يكون بصندوق ضخم او غرفة لامتناهية الاتساع ، عارية من الجدران ومن السقف ومن الارضية ، يمكن وضع الاشياء فيها وسحبها منها . والعالم المحيط شبه «مقحم» في ذلك «الصندوق» او تلك «الغرفة» . ومن هنا خلص نيوتن الى الاستنتاج بأن المكان مطلق ، اي مستقل عن المادة . كذلك هو حال الزمان الذي تصوره شيئا مطلقا ، منفصلا عن المادة ومستقلا عنها . ذلك كان تصور المادية الميتافيزيقية .

تناول الفيزيائي الكبير ألبرت آينشتاين (١٨٧٩ - ١٩٥٥) تناولا مغايرا مسألة المكان والزمان في نظريته عن النسبية . فقد اثبت علميا صحة الفكرة التي ابان عنها مؤسس المادية الجدلية

ماركس وانجلز والتي تنص على ان المكان والزمان مرتبطان واحدهما بالآخر ، ومرتبطان بالمادة ، وتابعان لخواصها .

من الممكن ان يتوهم المرء ان الزمن يمضي على منوال واحد سواء أعلى الارض ام في صاروخ يندفع بسرعة هائلة . لكن ثبت ان ذلك غير صحيح . فلو تحرك الصاروخ بسرعة تقارب سرعة الضوء ، لمر الزمن فيه بسرعة ابطأ بكثير من السرعة التي يمر بها على الارض . لنتخيل اننا رحلنا على صاروخ من ذلك النوع . ولنقل اننا سافرنا ثلاث سنوات . يوم سنعود الى الارض ، سنصاب بالذهول : فقد مرت عليها مئات السنين ، بله آلافها ! يصعب تصور ذلك ، لكن ذلك هو واقع الحال . اذن للارض زمانها الخاص بها ، وللصاروخ المتدفع زمانه الخاص به . الزمان نسبي ، ومنوط بسرعة الحركة . فكلما تحرك جسم في المكان بسرعة اكبر ، مر الزمان بالنسبة اليه ببطء اكبر .

لكن يبدو ان المكان هو الآخر نسبي . لنتخيل قطارا يمر امام رصيف محطة بسرعة تقارب سرعة الضوء (تساوي سرعة الضوء . . . ٣٠٠ كيلومتر في الثانية) . فركاب القطار سيقدرون ان الرصيف قد تقلص ، بينما سيقدر الناس الواقفون على الرصيف ان القطار هو الذي تقلص . وليس هذا خداعا من قبل حاسة النظر ، وانما هو واقعة موضوعية . اذن فالمكان هو الآخر نسبي .

يسمى المثاليون المحدثون الى تزييف معنى هذا الاكتشاف من اكتشافات العلم . يقولون : ما دام المكان والزمان نسبيين ، فليس لهما من وجود موضوعي ، وانما وجودهما في وعي الانسان فحسب . والحال ان ذلك غير صحيح . فالاكتشافات الجديدة لم تدحض التصور المادي عن المكان والزمان . انما التصورات المتأفيريكية القديمة هي وحدها التي دحضت . وكما يقول الفيزيائيون : لكل نسق من الإحداثيات زمانه الخاص به ، زمان نسبي . لكن هذا الزمان له وجوده الموضوعي . المكان ايضا ذو

وجود موضوعي .

والحال اذا كان الزمان والمكان موضوعيين وغير مرهونين بالانسان ، افلا يقف هذا الاخير عاجزا امام سير الزمان المحتوم الذي لا راد له ؟

ان الانسان عاجز عن ايقاف الزمان ، لكنه ليس عاجزا امام المجرى الموضوعي للزمان . بل على العكس ، فهو يملك كل ما هو لازم كي يخضعه له وكي يتغلب عليه . والزمان يعمل لصالحنا اكثر ، كلما عرفنا كيف نستخدمه على نحو افضل .

هكذا تتميز بلدان الاشتراكية بوتائر مرتفعة لتطور الانتاج . وهذا ما يتيح لها ان تكسب زمانا في المباراة الاقتصادية مسع الاقطار الرأسمالية المتطورة .

لاتناهي العالم ووحدته .

المكان لامحدود ، والزمان ابدى . لهذا يمتد العالم الى ما لانهاية من كل صوب : من الاعلى ومن الادنى ، من اليمين ومن الشمال . ليس له في الزمان من بداية ولن يكون له ابدا من نهاية .

يؤكد العلم كل التأكيد صحة التصور المادي عن لاتناهي العالم والمكان . فكوكبنا ، الارض ، لا يعدو ان يكون حبة رمل في المحيط الكوني المترامي الاطراف بغير ما حدود . ووحددة قياس الكون ليست هي الكيلومتر ، وانما ما يسمى بالسنة الضوئية ، اي المسافة التي تقطعها حزمة من الضوء في سنة بسرعة ٣٠٠ كيلومتر في الثانية . ويرصد علماء الفلك اليوم اجراما توجد على بعد مليار سنة ضوئية واكثر . اي ان صاروخا يندفع بسرعة ٥٠ كيلومتر في الساعة لن يصل اليها الا بعد

بضعة الوف من مليارات السنين ! انها لمسافة يصعب تصورها .
لكن العلم يقول لنا انها ليست حدا .

انظروا الى السماء ليلا تروها مزروعة بالنجوم . وكل
المنظومة النجمية التي تنتمي اليها الشمس تسمى المجرة . وتضم
مجرتنا زهاء ١٥٠ مليار نجم . والحال انه توجد مليارات عدة
من تلك المجرات . وقد توصل العلماء الى دراسة هذا كله
بواسطة وسائل رصد حديثة في منتهى القوة : التلسكوب
والراديو سكوب . لكن ليست تلك هي «نهاية العالم» بعد .
الكون اذن لا نهاية له ، لا حد ، لا تخوم . لهذا تفتقر الى اي
اساس جميع المحاولات التي يبذلها المثاليون ليثبتوا ان العالم
كانت له بداية وانه ستكون له نهاية .

لنفرض ان الكون محدود في المكان ؛ في هذه الحال نجد
انفسنا وجها لوجه امام السؤال المحتوم التالي : ماذا يوجد فيما
 وراء الكون ؟ هل هناك عالم آخر غير العالم المادي ؟

لقد اثبت العلم على نحو قاطع انه لا يوجد ولا يمكن ان يوجد
عالم لامادي ، «متعال» . وبالفعل ، لا وجود الا للمادة ، ولا يمكن
ان يوجد سوى عالم مادي واحد . لهذا تعلمنا الفلسفة الماركسية
ان العالم واحد . ولا ينبغي ان نستنتج من ذلك ان العالم الذي
نحيا فيه هو وحده الموجود . لقد افصح المفكر الايطالي الكبير
جيوردانو برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠) عن فكرة تعدد العوالم . لكنها
جميعا مادية . وبهذا المعنى تشكل جميعها عالما ماديا اوحد .
ووحدة العالم تعني ، فضلا عن ذلك ، ان جميع الاشياء وجميع
الظواهرات وجميع السيوررات مترابطة فيما بينها ، وانها ليست
ركاما من اشياء منعزلة ، بل تشكل كلا واحدا .

كيف تم الوصول الى تصور وحدة العالم ؟ يجيب انجلز :
عبر الطريق الطويل والمتعرج الذي سلكته الفلسفة وعلوم
الطبيعة . في الماضي ، حين لم يكن لدى البشر تصور علمي عن
الشمس ، عن الكواكب ، عن النجوم ، كانوا يفترضون ان

«العالم السماوي» (النجوم ، الشمس ، القمر) يتميز جوهريا عن العالم الارضي . هكذا ولدت فكرة عالمين اثنين . لكن تدريجيا ، وطردها مع ارتقاء العلم ، سقط حجاب السر واتضح ان «السما» مادية في جوهرها مثلها مثل العالم الذي فيه نحيا .

سدد العالم البولوني كوبرنيكس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) اول ضربة الى التصورات المغلوطة التي كان يكوئتها الناس عن الكون . فقد افصح عن فكرة ان الارض ليست مركز الكون ، بل هي واحد من كواكب المنظومة الشمسية . هكذا ثبت انه لا مجال لمعارضة «السما» الارض . فليس في السماء شيء خارق للطبيعة .

في القرن الثامن عشر برهن العالم الكبير نيوتن على ان قوانين الميكانيكا ، التي بموجبها تدور ارضنا حول الشمس ، تجعل القمر يدور حول الارض ، والكواكب الاخرى تدور حول الشمس .

تتألف الأجرام السماوية من العناصر ذاتها التي تتألف منها الارض . وقد قام الدليل القاطع على وحدة هوية العناصر الموجودة على الارض وعلى أجرام الكون الاخرى . وقد جاء هذا الدليل من نتائج تحليل الاجسام الفضائية التي تصطدم بالارض ، وعلى سبيل المثال النيازك . فهذه الاجسام تتألف بوجه خاص من الحديد ، اي من عنصر كثير الشيوع في الارض . وهذا يثبت على نحو قاطع انه لا وجود لشيء لامادي في «ممثلي السماء» اولئك .

لا وجود اذن في العالم لاي ظاهرة ليست ناجمة عن الحركة ، عن تطور المادة . والمادة تشمل كل شيء . فعلها يمتد في كل مكان ، ولا وجود لشيء خارج المادة التي هي قيد الحركة والتطور او خارج الاشكال التي تتلبسها هذه المادة . وعليه ، ليس هناك سوى عالم مادي واحد ، ووحدة العالم تكمن في ماديته .

لنر الان الى العلاقة التي تقوم بين العلم المادي والوعي .

الفصل الثالث

المادة والوعي

الوعي خاصية المادة الرفيعة التعضي

منذ حقب لا تعيها الذاكرة تساءل الناس لماذا يكف الانسان،
بعد موته ، عن التفكير والتحرك والتكلم .

على مدى قرون وقرون سعى الناس الى ادراك سر العلاقة
القائمة بين الجسم وبين ما كانوا يسمونه بالروح ، او بعبارة ادق
وعي الانسان . لكن كان من الصعب الاجابة على هذا السؤال .
اذ كيف السبيل الى دراسة ما لا يقع تحت نظر او سمع ، وما
لا لون له ؟ ليس يسع احدا ان يعرف الفكرة التي في خلدي . ما

الفكر ، ما الفكرة ؟ لقد ضرب المثاليون واللاهوتيون اخماسا
بأسداس على مدى قرون بصدد هذه الاسئلة وما زالوا يفعلون .
يعلمنا الدين ان مصدر الحياة والفكر هو الروح ، المبدأ
الروحي . فالروح « شرارة الله » في الانسان . والجسم ما كان
ليوجد لولا الروح ، وبدونها يموت .

اما الروح - كما يؤكد الدين - ففي وسعها الاستغناء تماما
عن الجسم . انها تدلف اليه عند ولادة الانسان وتبارحه بعسد
موته . والى يومنا هذا ، ما يزال الاقرار بوجود آخرة الاساس
الذي تقوم عليه الاديان جميعا .

لكن لنمعن النظر في المسألة .

ما الوعي الا الفكر ، الاحاسيس ، المفاهيم ، الارادة . هذه
الوقائع جميعا هي من خواص الانسان . فلو لم يكن قادرا على
الاحساس لما وجدت احساسات ، وبدون انسان يرغب ويشتهي
لما وجدت رغبة وشهوة . والارادة لا وجود لها حيث لا وجود لمن
يفترض فيه ان يفصح عن هذه الارادة .

صحيح ان الحيوانات تمتلك بعض عناصر الوعي . وعلى
سبيل المثال ، الاحساسات وشكل معين من الذكاء . لكن عناصر
الوعي هذه ظهرت في عهد حديث نسبيا .

ينبغي ان نستخلص من ذلك ان الطبيعة لم توجد قبل البشر
فحسب ، بل قبل الكائنات الحية جميعا ايضا ، وبالتالي بصورة
مستقلة عن الوعي . الطبيعة معطى اول . وما كان للوعي ان يوجد
قبل الطبيعة . انه معطى ثان .

لقد لوحظ منذ زمن بعيد انه يكفي احيانا ان يصاب المرء
بجرح بليغ في يده حتى يفمى عليه . وقد اثبت العلم ان الاغماء
هو نتيجة تدفق غير كافٍ من الدم الى المخ ، او اصابة حادة في
الجهاز القلبي - العرقي ، او صدمات حادة ، او نزيف شديد .
الوعي اذن مرهون بعمليات مادية تحدث في الجسم ، في المخ ،

في الاعصاب . ودمار الجسم يؤدي الى دمار الوعي .
اليكم مثلا آخر . يعرف الجميع انه متى كان الانسان
متعبا ، متى شعر بتوعك ، اضطربت افكاره وتشوشت . وعلى
العكس من ذلك ، حسبته ان يستريح ، ان يقوم ببعض التمارين
الرياضية ، او ان يأخذ حماما ، حتى تتحسن حالته البدنية ،
وحتى تصفو افكاره .

هكذا تعود بنا ادراجنا الى ذلك الاستنتاج الذي يقول انه لا
يمكن ان يوجد وعي بلا مادة . لكن هل كل مادة تفكر ؟ حسبنا ان
نلقي نظرة على العالم المحيط بنا حتى نجيب : كلا . الاحجار على
سبيل المثال ، والطبيعة الخاملة الحياة بوجه عام ، لا تفكر . ولا
يقدم العديد من العضويات الحية اي علامة من علامات الوعي .
متى ولد اذن الوعي ؟

. تدل العلوم الحديثة على ان الطبيعة الحية تأتي من الطبيعة
الميتة . وهذه نتيجة بالغة الاهمية . يؤكد المثاليون ان الطبيعة
الحية لا تمت بصلة الى الطبيعة الميتة . يقولون ان الاشياء الحية
والخاملة الحياة تتميز تميزا جذريا بعضها عن بعض . فالكائنات
الحية ، بخلاف الاشياء الخاملة الحياة ، تتحرك ، تتكاثر ،
تنمو . وبالفعل ، ان الفارق لكبير . لكن عجز المثاليين عن تفسير
ما بين هذه الكائنات والاشياء من صفات مشتركة قادهم الى
الاحذ بالفكرة القائلة ان العضوية الحية تنطوي على «قوة
حيوية» نوعية . وهذه القوة هي ما تميزها جوهريا ، على حد
زعمهم ، عن الطبيعة الخاملة الحياة . فهل هذا صحيح ؟

صحيح ان العضوية الحية تتميز عن الطبيعة الخاملة الحياة .
لكنها ترتبط بها في الوقت نفسه ارتباطا وثيقا لا يقبل فكاكا .
فالعضوية الحية مركبة ، على سبيل المثال ، من عناصر معينة
كالفحم والهيدروجين والاكسجين والحديد والكبريت والفوسفور
وغيرها . وهذه العناصر واسعة الانتشار ايضا في الطبيعة
الخاملة الحياة . ولا تحتوي العضوية الحية على اي عنصر غير

موجود في الطبيعة الخادمة الحياة . وانطلاقا من وقائع من هذا النوع اثبت العلم ان المادة الحية اتت من المادة الميتة . لكن ظهور الحياة على الارض ، ظهور الخلية الحية ، لا يعني بعد ظهور الوعي . فمع الحياة لا تظهر سوى العناصر الاولى للوعي .

ان الوعي مرتبط بنشاط انصاف كرات المخ . فهذه الاقسام من المخ هي حصيله ارتقاء مديد ، تطور اثناءه الجهاز العصبي وطرا تعقيد متزايد باستمرار على نشاطه . وقد ارتقى سلوك الحيوانات هو الآخر ، وتعقد ، الى ان ظهر المخ البشري ، وظهر معه الوعي الانساني .

وبلحاء انصاف كرات المخ تحديدا ترتبط التظاهرات العليا للنشاط العصبي . ومن السهل ان نفتتح بذلك اذا اقمنا مقارنة بين ارتقاء الجهاز العصبي وبين الكيفية التي تعقد بها سلوك الحيوانات . فعلى سبيل المثال ، نلاحظ لدى الاسماك التي لا وجود عندها لقشرة دماغية سلوكا هو في منتهى البساطة . اما الطيور فسلوكها اشد تعقيدا بكثير ، لانه تتوفر لها عناصر من لحاء المخ . ويزداد التعقيد في سلوك الكلاب بحكم تطور اللحاء لديها . وعندما نصل الى القروود الشبيهة بالانسان ، نجد ان كل حركة ارادية غدت خاضعة للقشرة المخية . ومع ذلك ، لا نستطيع ان نتكلم عن فكر الحيوانات بالمعنى الحقيقي للكلمة . فالفكر خاصية موقوفة على الانسان ، ومرتبطة ، من خلال سيرورة الارتقاء ، بظهور الدماغ الانساني ، الشكل الاعلى للمادة . **ليس الوعي نتاج اي مادة ، وانما هو نتاج مادة رفيعة التعضي ، نتاج النشاط المخي . الوعي وظيفة للمخ ، ولا وجود له حيث لا وجود للمخ .**

أما أن الوعي مرهون بالمخ ، فهذا ما يؤكد واقع ان بالامكان إحياء الانسان اذا كان الموت قريب العهد . أما اذا تصرم زمن طويل على الوفاة ، فان الخلايا المخية تشرع بالانحلال . وقد

يمكن ان تعاد وظائف القلب الى سابق عملها ، لكن ذلك غير ممكن مع وظائف المخ : اذ تحدث فيه ظاهرات لا سبيل الى الرجوع عنها . ويختفي الوعي نهائيا ، لان المخ يتوقف الى الابد عن اداء وظيفته .

ما الوعي ؟

لنأخذ اي عبارة كانت ، وعلى سبيل المثال : «اني ارى هذا الكتاب» ، او «هذا المنزل عالٍ» . فمن المفهوم تماما في هذه الحال انه لا يوجد في رأسنا كتاب ، وانما فكرة هذا الكتاب ، كما لا يوجد منزل ، وانما فكرة المنزل . وبعبارة اخرى ، توجد في رأسنا صور اشياء وظاهرات . وكل فكرة تتألف من مدركات . ففي قولنا مثلا : «الاوراق خضر» ، يكون التعبير عن الفكرة بالمدركين : «اوراق» و«خضر» . من اين تأتي هذه المدركات ؟ من الحياة ، من الواقع . الاشياء لها وجودها الموضوعي ، وعلى اساسها نكوّن عنها مدركات . اولا الكتاب ، ثم فكرتي عن هذا الكتاب . المدركات اذن معطى ثانٍ . في المقام الاول الواقع ، ثم انعكاسه ، فكرة هذا الواقع . لهذا قال لينين ان الفكر نسخ ، انعكاس للواقع . يعيد انتاجه ، يعكسه ، يصوره فوتوغرافياً .

يؤكد خصوم المادية في محاولة للنيل منها انها تساوي المادة والوعي ، تخطئ بينهما ، تعتبر النفسي ماديا ايضا . لكنهم «ينسون» ان يحددوا اي مادية يعنون . فتوكيد مادية الحياة النفسية غريب مطلق الغربة عن المادية الجدلية . بل ان المادية الجدلية ، على العكس من ذلك ، تأخذ على الماديين المتبدلين مماهاتهم الفكر بالمادة . فهؤلاء الماديون يقرون هم ايضا بأن الوعي معطى ثانٍ ، لكنهم لا يستطيعون ان يأتوا بتفسير صحيح لدالاته الحقيقية . يقول الماديون المتبدلون ان المخ يفرز الفكر مثلما تفرز الكبد الصفراء . وقد اطلقت عليهم هذه التسمية لانهم يتصورون الفكر على نحو فحج ، مبتذل ، تبسيطي .

لقد وجه لينين لاذع النقد الى الماديين المتبدلين لخلطهم بين

الوعي والمادة . وقد اوضح ان الوعي ليس ماديا ، انما الوعي نسخة الواقع ، صورته .
وعي الانسان اذن هو مقدرة المادة الرفيعة التعضي ، الدماغ ، على عكس الواقع المادي ، اي نسخه .

الفكر واللغة

كثيرا ما يدهشنا سلوك القردة . لقد وضعت ، على سبيل المثال ، موزة امام قرد . وكان صعبا عليه الامساك بها ، لانها قريبة من نار . لكن القرد «علم» كيف يغرف الماء من برميل صغير موضوع جانبا ، وكيف يطفىء النار ويمسك بالموزة . ونراه بالفعل يمسك بها . وبعد ذلك وضع القرد في شروط جديدة: ففي عرض نهر يوجد طوف عليه موزة وامامه نار مضرمة . وعلى مسافة بعيدة نسبيا وضع برميل صغير فيه ماء . المعضلة اذن هي هي : فالمطلوب اطفاء النار والامساك بالموزة . وفي وسع القرد ان يغرف الماء من حوله ، اذ الماء كثير عند الطوف . ولكنه لا يفعل ، بل يشق طريقه بجهد الى حيث البرميل الصغير ليغرف منه الماء .

ان هذا المثال يظهر لنا ان القرد ليس لديه مدرك او تصور عن «الماء» ، وانه لا يعرف خواصه العامة . ان فكره مرتبط ارتباطا مباشرا بالاشياء التي تحيط به . بل اكثر من ذلك : فهذا الفكر مستحيل بدون رباط مباشر بهذه الاشياء . انه لا «يفكر» اذن الا حين توجد امامه اشياء . لكن اذا لم يكن امامه شيء . ما استطاع ان «يفكر» .

اما فكر الانسان فمغاير نوعيا . انه يتعلم كيف يعرف الاشياء اثناء الانتاج ، اثناء العمل ، اثناء النشاط العلمي ، ويدرس

خواصها . انه يلاحظ ان ماء برميل او نهر او بئر ، وان ماء البحر ، الخ ، يملكان خواص مشتركة ، وعلى سبيل المثال ، خاصية القدرة على اطفاء النار . ان الانسان يخلق فكرة «الماء» . وليس المقصود بها ماء البرميل او النهر او البحر ، وانما «الماء» عامة» . انه مدرك عام . فالانسان ينفصل وينأى عن الاشكال المعطاة ، عن الاشياء العينية ، ويستخلص منها خواصها العامة . حين نأتي بذكر فكرة «الشجرة» ، «الشجرة عامة» ، فان ما نعنيه بها الخواص العامة التي تميز كل شجرة ، وليس فقط الشجرة التي تنمو امام نافذتنا . ننفصل هنا عن الاشجار العينية ، نتجرد عنها . لهذا فان المدرك مجرد . وهذه السمة المميزة للفكر الانساني ، خاصيته المجردة ، هي ما ليس في متناول الحيوانات .

ما الذي يسمح لنا بأن نتجرد ، اي ان نفصل عن الشيء العيني خواصه الجوهرية ؟ انه الكلام ، اللغة . فكلمة «شجرة» تدلنا على ان المقصود هو الشجرة بوجه عام ، وليس شجرة محددة بعينها . ويستحيل التعبير عن فكر مجرد بوسيلة اخرى غير اللغة .

يتكون وعي الانسان ، منذ الطفولة ، على اساس الكلمات ، على اساس اللغة ، لانه انما بواسطة الكلمات واللغة تعبر افكارنا عن نفسها . واثناء هذه السيرورة تظهر تدريجيا سمة موقوفة على الانسان وحده : الفكر المرتبط ارتباطا صميميا باللغة . فمن المتعذر فصل الوعي الانساني ، فصل فكر الانسان عن لغته . ان وحدة لا تقبل فكاكا ، عضوية ، تقوم بين اللغة والفكر .

نوه انجلز بأن ظهور اللغة المنطوقة قد خطا بالدماغ البشري خطوة جديدة الى الامام . فتحت تأثير اي اسباب حدث ذلك ؟ سيساعدنا المثال التالي على ايجاد جواب صحيح . فقد عرف التاريخ عدة حالات عن «تربية» اطفال بين رهط ذئاب . وقد ذكرت حالة من هذا القبيل في الهند عام ١٩٥٦ . فقد خطفت

ذئبة طفلة يقل عمرها عن ثلاث سنوات . وحين عثر عليها بعد بضع سنوات كانت تسير على أطرافها الأربعة وتقلد صراخ الحيوانات ، ولا تعرف بالطبع الكلام . وليس في ذلك ما يدهش : فالطفلة كانت تقلد في كل شيء الحيوانات . لكن ثمة نقطة مثيرة للاهتمام في تلك القصة . فجميع الجهود التي بذلت لتعليم تلك الطفلة النطق ذهبت أدراج الرياح . ولم تستعد البنت الصغيرة لا السيماء ولا الوعي الإنسانيين . وما أمكنها ان تألف الشروط الجديدة لحياتها ، فماتت .

هنا يطرح سؤال نفسه . فقد ولدت الطفلة بدماع إنساني سوي . وراحت تتطور ، ويتطور معها بالطبع دماغها . فلماذا بقي فكرها اذن في حالة تأخر لا علاج لها ؟ لانه لا يكفي ، في أرجح الظن ، ان يكون لدى الانسان دماغ سوي حتى يكون لديه وعي إنساني ، بل لا بد ايضا ان يعيش في مجتمع إنساني . **وخارج المجتمع لا يمكن ان يوجد فكر إنساني** . وهذا الأخير يظهر كنتيجة لحياة البشر ضمن نطاق مجتمع . ولا يمكن للفكر ان يتجلى الا متى عكس الانسان الطبيعة من جهة اولى ، وإلا متى دخل ، من الجهة الثانية ، في علاقات محددة مع سائر الناس من خلال العمل والانتاج . **لقد خالق العمل الانسان ، المجتمع الإنساني** . والانسان طور دماغه ، وعيه ، بعمله ، بممارسته نشاطا انتاجيا . على هذا النحو لاحظ ماركس ان الوعي كان ، من اللحظة الاولى لظهوره ، نتاجا اجتماعيا وأنه سيبقى كذلك ما بقي البشر . ان الوعي نتاج حياة الانسان في مجتمع . انه ظاهرة اجتماعية .

يترتب على ذلك انه لا يمكن ان يوجد وعي خارج المجتمع ، مثلما لا يمكن ان توجد خارجه لغة . ان اللغة المنطوقة ، وسيلة تبادل الافكار ، وسيلة اتصال البشر ، هي نتاج الضرورة . الفكر لا يصبح واقعيًا ، اذا جاز القول ، الا في الكلمات . اما ما دام

في رأس الانسان ، فانه لكالميت ، ممتنع على سائر الناس . لهذا نوه ماركس بأن اللغة هي الواقع المباشر للفكر . اي ان الفكر ليس له من وجود الا في غلاف اللغة المادي . وحتى اذا لم نعبر عن افكارنا جهارا ، وانما فقط بيننا وبين انفسنا ، فاننا نلبسها رداء لفظيا . وبفضل اللغة تتشكل الافكار وتنتقل الى سائر الناس .

الفكر والآلة

طبيعي انكم سمعتم بالآلات «الذكية» . ولعل بعضكم رآها بأم عينه . انها تؤدي عملا هو من أعقد الاعمال : فهي تترجم من لغة الى اخرى ، وتفسد الطائرات او القطارات ، بل تلعب الشطرنج . كما انها تنفذ بعض العمليات المنطقية التي لا يقوم بها عادة سوى الدماغ الانساني . انها «تعرف» متى ينبغي شد كابح القطار ، و«تحفظ» بعض العمليات ، الخ . انها تبدو في عملها وكأنها الفكر الانساني وقد البس معدنا . وهذه الاليات عبارة عن آلات سيبرنيطيقية (السيبرنيطيقا علم الاليات القادرة على تسيير دفة امرها بنفسها) .

هل يمكن خلق آلة تحل حلولا كاملا محل الدماغ البشري ؟ كلا . صحيح ان الآلة تستطيع ان تقوم بلا خطأ بكل ما هيأها له الانسان . بل صحيح انها تستطيع اكتشاف وقائع جديدة يجهلها خالقها . لكن الآلة لن تكون البتة سوى اداة بالنسبة الى العقل البشري . بدون الانسان تبقى مجرد «معدن ميت» . لماذا يتفوق الدماغ البشري اذن على كل آلة ؟ لانه نتاج الحياة الاجتماعية ولأن لفكر الانسان بدوره تابع اجتماعيا . وليس في استطاع اي «دماغ الكتروني» ان «يعيد بناء» العالم الداخلي للانسان ، تابعه الفاعل النشط ، غنى مخيلته ،

أحلامه ، قدرته على تشغيل ارادته ، العالم المعقد للفن .
لا تستطيع الآلة ان تنفذ سوى الوظائف ذات الطابع الآلي ،
الميكانيكي . وكأئنة ما كانت العمليات التي تنفذها الآليات
السيبرنيطيقية نيابة عن الانسان ، فان هذه الآليات لن تكون
سوى وسيلة يستخدمها الانسان ، يستخدمها المجتمع ، لحل
معضلات اقتصادية وعلمية وما الى ذلك . الآلة لا تستطيع ان
تفكر ، انما تستطيع فقط ان تساعد الانسان على التفكير . وميزة
الآلات السيبرنيطيقية تكمن على وجه التحديد في انها تسهل على
الانسان العمل الفكري .

الفصل الرابع

القوانين والمقولات الأساسية للجدل الماركسي

سبق ان تفحصنا ما المادة وما اشكال وجودها . وسنتفحص الان القوانين المتحركة في حركة المادة ، وفي ارتقاء الطبيعة والحياة الاجتماعية والوعي الانساني . وهذه القوانين هي الاشمل والأعم ، اي ان الاشياء كافة والظواهر قاطبة تنصاع لها انصياعا مطلقا . وهي تسمى قوانين الجدل . ويدرسها الجدل الماركسي ، علم أعم قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والفكر الانساني . وترتبط قوانين الجدل ومقولاته بعضها ببعض اوثق الارتباط ، ويكمل بعضها بعضا ، وتعطينا في مجملها أشمل فكرة عن تطور العالم .

حتى نفهم ما المقصود عادة بكلمة قانون ، لناخذ ابسط مثال .
فلو رمينا في الهواء بحصاة ، لعادت الى السقوط على الارض
حتما . وكذلك حال نشاب القوس .

ما هذه الظاهرات ؟ لماذا تحدث ؟ ينبغي ان نلاحظ اولا ان
الظاهرات في هذه الحالة ليست من نوع الظاهرات التي يمكن ان
تحدث او يمكن الا تحدث ، وانما من نوع الظاهرات التي لا يمكن
الا ان تحدث . ان الشيء الذي يلقي في الهواء يعاود بالضرورة
السقوط ارضا بفعل الجاذبية الكونية . نحن اذن هنا امام نظام ،
امام اطراد دقيق . وحين نصطدم في نشاطنا العملي بهذا النوع
من الظاهرات ، نقول : توجد هنا رابطة ضرورية ، اساسية ،
بين الظاهرات .

والقانون يعبر بالضبط عن هذه الروابط الداخلية ، الدائمة .
وبعبارة اخرى ، القانون رابطة بين الاشياء والظاهرات ، لا
تعقدها ظروف طارئة ، خارجية ، عابرة ، وانما تقيمها الطبيعة
الداخلية للظاهرات المتعاقبة . ولا يعكس القانون الروابط كافة ،
وانما فقط الروابط الاساسية ، الفاصلة .

نحن لم نستوف بعد مفهوم القانون . فالقانون لا يعرف
استثناءات : فقوامه ان يفعل فعله في جميع الظاهرات المنتمية
الى ميدان محدد . وعلى سبيل المثال ، يعبر مبدأ ارخميدس عما
هو مشترك بين جميع الاجسام التي تغطس في سائل . وبعبارة
اخرى ، ان الرابطة التي يعبر عنها ذلك المبدأ (بين حجم الجسم
ودفع السائل) ذات طابع شمولي . وكذلك حال كل قانون : فهو
يعبر عما هو عام في الظاهرات . القانون يجعلنا نعرف اذن اعمق
ما في الاشياء واعم ما فيها .

يعكس القانون لا رابطة عامة فحسب ، بل رابطة ضرورية

ايضا . فما يعبر عنه يبدو ضروريا ، محتما .

في الحياة العملية ، تستخدم كلمة «قانون» احيانا بمعنى مغاير . فعلى سبيل المثال ، تقر دولة من الدول دستورا جديدا كقانون اساسي ينظم حياة البلاد . انه قانون ملزم حقوقيا . اما حين نتكلم عن المفهوم الفلسفي للقانون فلا يذهب بنا الفكر الى اشباه تلك القوانين التي يسنها البشر ، وانما الى القوانين التي لها وجود موضوعي في الطبيعة والمجتمع بالذات .

ما دامت الاشياء والظواهر ذات وجود موضوعي ، فان الروابط التي نلاحظها بينها تكون هي الاخرى ذات وجود موضوعي ، اي القوانين التي بموجبها تتطور تلك الاشياء والظواهر . لذا فان السمة الاساسية لقانون ما هي أن يكون موضوعيا . هذا يعني ان قوانين تطور الطبيعة والمجتمع لا تتعلق لا بارادة البشر ولا بوعيهم ، وهذا ما تقيم البرهان عليه تجربة البشر . من ذلك ان قوانين الطبيعة تجلت قبل زمن طويل من ظهور المجتمع الانساني . فالبشر قد ظهروا على الارض في حقبة حديثثة نسبيا . اما القوانين التي يتحرك كوكبنا بموجبها فقد وجدت منذ ان وجد الكوكب ، والقوانين الناظمة لظاهرة من الظواهر تفعل فعلها من لحظة تواجد هذه الظاهرة .

ان قوانين التطور الاجتماعي لها هي الاخرى طابع موضوعي . فليس في مستطاع البشر لا ان يسنوها ولا ان يلغوها . يتمسك الفلاسفة المثاليون بوجهة نظر اخرى . فهم ينفون الطابع الموضوعي للقوانين . كان الفيلسوف الالماني عمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٨) يؤكد ان الطبيعة نفسها لا تعرف اي قانون . فكل شيء فيها هو في حالة سديمية ، والعقل البشري هو وحده الذي يدخل على الطبيعة نظاما ما . ولو لم يوجد الانسان ، لما وجدت قوانين . ويردد الفلاسفة البورجوازيون المحدثون بدورهم هذه الفكرة . لكن هل ثمة ما يسوغ لهم هذا التفكير ؟ لم يكن لدى الانسان البدائي اي فكرة عن قوانين الطبيعة .

ولم يكن يبحث عنها . وعليه ، ليست معرفتها فطرية . وفي زمن متأخر فحسب ، حين بينت التجربة للبشر وجود روابط ضرورية بين الظاهرات ، طفقوا يبحثون عنها ويجدونها في الواقع . يترتب على ذلك ان التصور المثالي عن القانون يناقض الممارسة التي تثبت الطابع الموضوعي لقوانين الطبيعة والمجتمع . يعبر القانون اذن عن الروابط العامة الضرورية ، الموضوعية والثابتة نسبيا ، التي تقوم بين الظاهرات والاشياء . لكن الاعتراف بالطابع الموضوعي لقوانين الطبيعة والمجتمع لا ينقض بحال من الاحوال واقع أن البشر قادرون على معرفة القوانين وعلى استغلالها لصالحهم . وكل تاريخ العلم والتقنية شهادة ساطعة على الكيفية التي يستخدم بها البشر القوانين التي اكتشفوها في نشاطهم العملي . ان المادية الجدلية تقر بالدور الفاعل للوعي في حياة الانسان . وقدرتنا على الحلم ، على التخيل ، تبرهن لنا على ان الوعي لا يدرك العالم على نحو سلبي ولكنه يتقدم الواقع ويستبقيه بنوع ما ويفعل فيه . معروف ان خيال جول فيرن (١) الجريء قد استبق العديد من الاكتشافات العلمية . وفي ايامنا هذه اوضحت النظرية الاشتراكية العلمية قوة نافذة تساعد ملايين البشر في المعمورة على تحويل العالم القديم على أسس جديدة .

إذا اوجدت القوانين ارتباطات بين جميع ظاهرات الطبيعة والمجتمع والفكر ، سميت بالقوانين العامة ، اي قوانين الجدل . فما هذه القوانين اذن ؟

١ - كاتب فرنسي (١٨٢٨ - ١٩٠٥) ابتكر فن رواية الاستباق العلمي . «م»

٢ - قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية

حتى نبنى طائرة قادرة على الطيران بسرعة تفوق سرعة الصوت ، او صاروخا ، فلا بد لنا من مواد لا وجود لها في الطبيعة . فمن اين ناتي بها ؟ من اين ناتي ، على سبيل المثال ، بمزيج يكون اشد صلابة من الفولاذ واكثر شفافية من البلور ؟ لقد قدمت لنا الكيمياء مفتاح المشكلة .

لقد تعلم العلماء كيف ينتجون اجساما متشاكلة التركيب Polymères ، اي مواد تتألف دقائقها من عدد كبير من الذرات . وقد اعطى الكيميائيون الاجسام ، بفضل تغييرهم لتركيب الدقائق ، صفات جديدة ، خواص جديدة .
ما النوعية وما الكمية ؟

ان لكل شيء سيماءه الخاصة التي بها نتعرفه . ولو نظرنا فيما حولنا لرأينا ان كل شيء (الحيوان ، الحبر ، الشجرة ، او اي شيء آخر) يمتلك خواص ، مظاهر ، سمات مميزة تعبر عما هو اساسي وجوهري وهام فيه ، عما يعينه ويحدده ويميزه عن الاشياء الاخرى .

لماذا نقول ان هذا الشيء قلم ؟ لانه يوجد امامنا قضيب رفيع من الغرافيت مغلف بقضيب صفيح من الخشب ، وبوسطننا استخدامه للكتابة والرسم . وبذلك نكون قد حددنا الخواص الاساسية للشيء ، صفاته الباطنة ، وسلطنا الضوء على ما يجعل منه ما هو كائن عليه : نوعيته .

**النوعية اذن خاصية باطنة ، اي مرتبطة بالشيء بالذات ،
مجموع سماته الاساسية كلها التي بفضلها يكتسب الشيء
استقرارا نسبيا ويتميز عن سائر الاشياء .**

علام نستند للفصل في النوعية ؟ اليكم مثلا . اشتترت فتاة صغيرة زجاجة حليب من مخزن . في الشارع سقطت منها

سهوا على الرصيف . لكن الزجاجة لم تنكسر ، وانما ارتدت عن الرصيف كالرصاصة . وأثارت هذه الحالة اهتمامنا ، واقتنعنا بأننا امام نوعية جديدة : «الزجاج غير القابل للكسر»؛ واستخلصنا من ذلك الاستنتاج التالي : ان تلك المادة تمتلك نوعية جديدة . لقد اكتشفنا نوعية جديدة بفضل اكتشاف خواص جديدة . ذلك هو ما نفعله على الدوام . اذا درسنا نوعية معدن مسن المعادن ، فهذا يعني اننا ندرس خواصه : لونه ، قابليته للتأكسد ، وزنه الذري ، صلابته ، الخ . وبعد ان ندرسه ، نعرف خواصه الباطنة ، اي نوعيته .

خاصية الشيء اذن هي سماته النموذجية ، قدرته المميزة ، خصائصه . وهذه الخصائص الباطنة للاشياء هي ما يسمى بنوعيتها . النوعية اذن تتجلى عبر الخواص .

لا يكون للشيء عادة خاصية واحدة ، وانما عدة خواص . لهذا لا يجوز الخلط بين النوعية والخاصية . النوعية هي الوحدة الداخلية للخواص ، مجموعها كافة . نوعية الشيء اذن لا تعبر عنها خاصية مفردة ، وانما الخواص كلها معا . قد يفقد المعدن لونه ، اي واحدة من خواصه ، لكنه يبقى معدنا . وحين تضيع جميع الخواص او الخواص الاساسية ، تكون قد ضاعت النوعية . لا تتسم الاشياء والظواهر بالنوعية وحدها ، وانما ايضا بالكمية . وبالفعل ، الى جانب المسائل المتعلقة بنوعية الاشياء (بما هي كائنة عليه) ، نصطدم على الدوام بمسألة كميتها (كم هي ، ما ابعادها ، حجمها ، الخ) .

ان الميزة الكمية للاشياء والظواهر بالغة التنوع . ولهذا تتجلى باكثر الاشكال تباينا . فاذا كانت كمية الماشية هي ما يأسر اهتمامنا ، على سبيل المثال (عدد الجمال ، الخراف ، الماعز ، الدربانيات) ، فاننا نحددها بأعداد : ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، الخ . واذا كنا نريد ان نعرف كم جنينا من الارز او فستق العبيد في

هذا العام بالمقارنة مع العام الماضي ، نستطيع ان نجري حسابنا على اساس النسبة المئوية ، او الاطنان ، الخ .

الكمية اذن هي قابلية الاشياء والظواهرات للقياس بواسطة اعداد تعبر عن الابعاد والوتيرة والدرجة والحجم ، الخ .

اذا تغيرت نوعية الشيء ، تغير الشيء ذاته . ولكن هل يؤدي تغير الكمية الى تغير الشيء ذاته ؟ لنر الى حالات عينية . يعلم الكثير من الناس كيف تبني السدود على الانهار . فالبناة يرمون في الماء بكتل ضخمة من الصخر . يرمون بالكتل الاولى . ولكن لا وجود للسد بعد . كذلك لن يوجد سد بعد المحاولة الثانية والثالثة . لكن كمية كتل الصخر التي رمي بها في النهر صارت كافية للتأثير على مجرى الماء . فاذا ما رمي بالمزيد منها ، سدَّ النهر . وبذلك تكون منشأة مائية - السد - قد شيدت بواسطة كتل صخرية منفردة .

ماذا حدث ؟ كانت التغيرات الكمية ، ما دامت تحدث ضمن حدود معينة ، لا تمارس اي تأثير على تكوين نوعية جديدة (في مثالنا ، السد) . لكن لما بلغت هذه التغيرات مقاسا معلوما ، اثرت في نوعية الشيء او الظاهرة .
ما المقاس ؟

حسبنا ان ننظر الى العالم كي نقنع بان الاشياء والظواهرات لها على الدوام مقاس محدد بقدر او بآخر . فالحجر ، على سبيل المثال ، يمكن ان يكون ضخما بقدر او بآخر ، لكن الاحجار لها على الدوام ضخامة معينة . فعيننا لم تقع قط على حجر يبلغ ارتفاعه كيلومترا . ولو وجد حجر كهذا فلن يكون الا صخرنا جبليا . وما قلناه يبين لنا ان المقاس ملازم لكل شيء . فكل نوعية معطاة تقابلها كمية متفاوتة التحديد ، لا كمية بغير تحديد . فالناس يمكن ان يكونوا طوال القامة ، او متوسطي القامة ، او قصار القامة . كذلك يختلف وزنهم . لكن للناس جميعا قامة محددة . فانتظارنا لم تقع قط على انسان يبلغ ارتفاعه خمسة

أمتار ، او وزنه طنا . فمثل هذه الكمية (طن) تتنافى والنوعية المعطاة (نوعية الانسان) . وكذلك الحال بالنسبة الى كل شيء . فالاشياء جميعا لها نوعية محددة تناظرها كمية محددة ، لا كمية بغير تحديد . ان المقاس مراعى على الدوام في الاشياء .

المقاس اذن هو توافق ووحدة المظاهر النوعية والكمية للاشياء .

فكل شيء هو على الدوام نوعية تناظرها كمية محددة .
عن ذلك نتجم نتيجة هامة : اذا حدثت تغيرات كمية فسي الاشياء ، فانها لا تمارس تأثيرا على النوعية ما دامت تحدث في حدود مقاس معلوم . فضمن هذه الحدود يبقى الشيء لامباليا - اذا جاز القول - بالتغيرات الكمية ، فلكانه لا يلحظها .

لكن اذا ما تجوز المقاس ، بدأت التغيرات الكمية تؤثر في الحالة النوعية للشيء . فالكمية تنقلب الى نوعية .

ان التغيرات الكمية تتراكم على نحو خفسي ولا محسوس وتدرجي ، ولا تؤثر في البداية في المظهر النوعي للشيء . لكن تأتي لحظة يبرز فيها للعيان هذا التراكم ، فتؤدي التغيرات الكمية الى تبدل في نوعية الشيء . هذا ما ابانته الامثلة التي اوردناها آنفا . فحين تعلم الكيميائيون كيف يخلقون اجساما متشاكلية التركيب ويحصلون على مواد جديدة ، على نوعيات جديدة ، كان ذلك بالاستناد الى قانون تحول الكمية الى نوعية .

ينبغي ان نلاحظ انه اذا كانت التغيرات الكمية تؤدي الى تغيرات نوعية ، فان العكس يحدث ايضا : فالتغيرات النوعية تؤدي الى تغيرات كمية .

لنفترض ان البشر خلقوا نوعا جديدا من فستق العبيد . فابتكارهم هذا يمثل نوعية جديدة . لكن النوع الجديد من فستق العبيد يعطي المزيد من الزيت ، وبالتالي تؤدي التغيرات النوعية الجديدة الى تغيرات كمية . الكمية تنقلب الى نوعية ، والعكس بالعكس ، اي النوعية تنقلب الى كمية .

يكمن اذن جوهر قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية في ما يلي : ان التغيرات الكمية الطفيفة ، غير المحسوسة في البدء ، تؤدي بتراكمها التدريجي ، وفي لحظة معينة ، الى تغيرات نوعية جذرية ، تختفي على اثرها النوعية القديمة وتظهر نوعية جديدة تفضي بدورها الى تغيرات كمية جديدة .

لكن كيف يتم تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية ؟
لقد لاحظ جميع الناس كيف يغلي الماء . في البدء ، يسخن الماء لا غير . ثم تصعد الحرارة ، فرضا ، الى ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٠ درجة . لكن الماء ما يزال ماء . صحيح انه حدثت تغيرات : فحالة الماء السائلة قد تغيرت ، لكنها لم تتغير الى درجة تكفي لكي يفقد الماء نوعيته . وتدوم الحال على هذا المنوال الى الدرجة ٩٩ . وعندئذ ما ان تصعد حرارة الماء درجة واحدة اخرى ، حتى يشرع الماء بالغيان بسرعة متحولا الى بخار . ان حالة الماء النوعية تتغير .

يبين لنا هذا المثال على نحو ساطع كيف تنقلب الكمية الى نوعية . في البدء ، تجري العملية ببطء ، بتدرج ، فتطورا تغيرات تمهيدية . لكن حين تتراكم هذه التغيرات في كمية كافية ، تبدأ بالحدوث تغيرات نوعية مباغتة وسريعة . هذا التحول يحمل اسم **الفزة** . يتوقف اذن التطور الكمي الوئيد عند نقطة محددة ، ويأتي اوان التحول الى نوعية جديدة ، وهو تحول بعيد عن ان يكون هذه المرة بطيئا وتدرجيا . ان لحظة الانتقال الى هذه النوعية الجديدة تمثل قفزة . لهذا حدد لينين **الفزة** بأنها **اشبهه بانعطاف حاسم من النوعية القديمة الى الجديدة ، بتغير مباغت في التطور** .

تشتمل سيرورة التطور على طورين ، وتتم في شكلين : تغيرات كمية بطيئة ، طفيفة ، وتغيرات نوعية جذرية وسريعة . وتحدث التغيرات الكمية البطيئة على الدوام في حدود المقاس القديم ، النوعية القديمة . ولا يكون قد طرأ هنا بعد اي تغير

جذري على الاشياء والظواهرات . وبهذا المعنى ، تمكن تسميتها بالتغيرات التطورية . والتطور سيرورة متواصلة ، تدرجية ، بطيئة ، بدون قفزات مباغتة ، بدون انقلاب الى نوعية جديدة . اما التطور المرتبط بتحول جذري لما كان موجودا سابقا ، بانقلاب نوعي في العلاقات الاجتماعية ، في الافكار العلمية ، في وضع التقنية ، الخ ، فان هذا التطور يسمى ثورة .

بيد انه ينبغي ان نلاحظ ان مفهوم «التطور» غالبا ما يلحق به التشويه على ايدي الميتافيزيقيين .

فبعضهم يؤكد ان التقدم لا يتم الا بطريق التطور ، بدون اي قفزة . يقولون : ليس في العالم سوى تغيرات كمية . ولا يحدث في الطبيعة اي تغير نوعي . وهذا التصور ينتمي الى ما يسمى بالتطورية المتبدلة ، لانه يفهم التطور فهما فجا ، مبتدلا ، شائها . وينكر انصار هذا التصور ضرورة النضال الثوري ضد الاستعمار والامبريالية .

وثمة تصور ميتافيزيقي آخر لا يقل عن سابقه ضرا ، يقول به الفوضويون ، وبوجه عام المغامرون «اليساريون» . فهم ينكرون سيرورة التطور ، سيرورة التغيرات الكمية ، ولا يعترفون الا ب «القفزات» و«الانفجارات النووية» بدون مراحل تمهيدية ، بدون تراكم تدريجي للقوى .

خلافا لهذه التصورات الميتافيزيقية الضيقة ، تنطلق المادية الجدلية من المبدأ الذي ينص على وجود صلة وثيقة بين السيرورة التطورية والسيرورة الثورية . وتكمن هذه الصلة في كون كلتا السيرورتين لا تقوم لها قائمة بدون الاخرى : فبدون تغيرات كمية ، تطورية ، لا توجد تغيرات ثورية ، نوعية ، وبدون تغيرات نوعية ، ثورية ، لا يوجد مقياس جديد ، لا تقوم مرحلة جديدة ، اي لا يكون هناك تطور .

لنر الان الى مختلف انواع القفزات وبما هي منوطة .

أما وأن هنالك أنواعا متباينة منها ، فالأمثلة التالية تسهل علينا الاقتناع بذلك . ان تحول القرد الى انسان هو ، بلا جدال ، قفزة في تطور العالم الحيواني دامت لا يوما واحدا ، وانما حقبة تاريخية مديدة للغاية ، عشرات الآلاف من السنين . ويقدم لنا مثال الماء المغلي ، الذي تحدثنا عنه آنفا ، شكلا آخر من القفزة . وهذان الشكلان يتميز واحدهما عن الآخر بكون اولهما يتمخض عن تغيرات جذرية في أجل طويل من الزمن نسبيا ، بينما يتمخض عنها الثاني بصورة شبه فورية . وعليه ، يلعب الزمن دورا كبيرا في تعيين شكل القفزة .

انه لمن السهل ان نفهم ان الاشكال المختلفة للتحول من نوعية الى اخرى ، اي الانواع المختلفة للقفزة ، تتعلق بطبيعة الظواهر قيد التبدل وبالشروط التي تتبدل فيها . ويتضح لنا ذلك بجلاء كبير في الامثلة المستقاة من الحياة الاجتماعية . ففي المجتمع الرأسمالي ، تحدث القفزة غب معركة فاصلة ، على اعتبار ان المجتمع منقسم الى طبقات يناصب بعضها بعضا العداء . أما في تطور المجتمع الاشتراكي ، حيث لا وجود لطبقات متعادية ، فان القفزات ، الانقلابات العميقة ، تتم في شكل تلاش تدريجي لعناصر النوعية القديمة ونمو عناصر النوعية الجديدة . وهنا تتم التغيرات الجذرية طردا مع تراكم النوعيات الجديدة .

وفي الاقطار التي خلعت عنها نير الاستعمار ، تتم التحولات الجذرية في حياة الشعب ، وعلى سبيل المثال انشاء تعاونيات فلاحية وبناء صناعة ، بصورة تدرجية : فبنية الاقتصاد القومي تتعدل ، واشكال الانتاج القديمة تضحل ، وترى النور اشكال جديدة .

مما تقدم قوله نستطيع ان نخلص الى الاستنتاج التالي : ان قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية يميظ لنا اللثام عن الاولية الداخلية لتكوين النوعيات الجديدة ، اي اساس التطور بالذات . لكن ما القوة المحركة له ، ما مصدره ؟ ان قانونا

آخر من قوانين الجدل يجب على هذا السؤال ، قانون وحدة
الاضداد وصراعها .

٣ - قانون وحدة الاضداد وصراعها .

تشغل فكرة التناقضات منذ بعيد الازمان العلماء .
فالميتافيزيقيون ، على سبيل المثال ، كانوا ينطلقون من المبدأ الذي
يقول بعدم جواز وجود تناقضات في كلامنا ، ليؤكدوا انه لا يجوز
ان توجد في الطبيعة ايضا تناقضات ، خواص متناقضة . كان
زينون ، الفيلسوف الاغريقي الذي عاش في القرن الخامس قبل
الميلاد ، يقول ان التناقض ، اينما كشف النقاب عنه ، شئ
زائف ، مستحيل ، لامعقول .

يتمسك الفلاسفة البورجوازيون المحدثون بوجهة النظر
عينها . يؤكد ، على سبيل المثال ، الفيلسوف الاميركي الرجعي
سيدني هوك ان الاحكام والاثباتات والبراهين يمكن ان تكون
متناقضة ، ولكن لا يمكن بحال من الاحوال ان تكون الاشياء
والظواهر متناقضة هي الاخرى .

والحال ان العلم والممارسة يبرهنان لنا على ان الطبيعة ، بل
الاشياء بالذات ، تنطوي على تناقضات ، على مظاهر متناقضة .
لنتفحص عضوية الانسان وعضوية الحيوان ؛ فثمة سيوررتان
متعاكستان متواقفتان تحدثان فيهما : فخلاياهما تنمو وتنفى في
آن معا . واذا توقفت احدى السيوررتين ، ماتت العضوية .
واشبه هذه الامثلة نصادفها في كل خطوة . انها تناقضات
الطبيعة بالذات . انها محتومة .

بين الاضداد التي يقوم بينها ارتباط تنبجس على السدوام

علاقات . لهذا تحدث بينها «احتكاكات» ، «صدامات» ، «اختلافات» . وتظهر التناقضات على الدوام حيثما تصادمت الاضداد ، نظرا لان التصادم هو تصادم ميول وقوى متعاكسة .
لهذا فان التناقض هو علاقة بين الاضداد ، والاضداد بالتالي هي مظاهر التناقض .

لو كانت الاشياء والظواهر لا تتغير ، لو كانت تلبث على ما هي عليه ابدًا ، لما تمخضت عنها أضداد ، مظاهر ينفي بعضها بعضا . لكننا نعلم مما تقدم أننا ان الاشياء والظواهر فسي حركة دائمة ، وانها تتغير وتتطور . لهذا لا تكف مظاهر مختلفة عن الظهور والتجلي في الاشياء ؛ فبعض من عناصرها يشيخ ويموت ، وبعضها الآخر - الجديد - يولد وينمو . خلاصة القول ، تظهر على الدوام في العالم الذي هو قيد تطور جوانب متضاربة ، قوى متعاكسة ، وبالتالي تناقضات .

ما قوام العلاقات بين هذه التناقضات ؟

ان ما تقدم قوله يظهر للعيان الصلات القائمة بين الاضداد . وهذه الصلات وثيقة للغاية ، لا تفصم لها عرى ، بحيث لا يمكن للاضداد ان توجد خارج نطاقها . على هذا النوع من الصلات نطلق اسم **وحدة الاضداد** . وينكر الميتافيزيقيون هذه الوحدة . يرون ان كل ضد له وجوده المستقل عن الضد الآخر . وفي الواقع ، ليس الامر كذلك . لناخذ كمثال طريقة اشتغال مصنع او معمل او تعاونية .

لكل منشأة نفقاتها بالعملة والبضائع . ولكن لها ايضا مدخولها ، اي مردودها من العملة والبضائع . هل يمكن لمنشأة ما ان تنفق من غير ان تجني اي ربح ؟ كلا ، بالطبع . لكنها لا تستطيع ايضا الاستمرار في العمل اذا لم تنفق مالا على التجهيزات والمواد الاولية ، الخ .

وهوذا مثال آخر . تشتمل حياة الحيوان او الانسان على سيرورتين متعاكستين : فثمة خلايا تولد ، واخرى تفنى وتموت .

لكن تصوروا انسانا يقول : كي نطيل امد الحياة يجب ايقاف
سيرورة فناء الخلايا ودمارها ، وعدم الابقاء الا على التجدد ، على
خلق خلايا جديدة . ان الانسان الذي يحاكم الامور هذه المحاكمة
يرتكب خطأ فادحا : فالحياة تشتمل على سيرورتين متعاكستين
يستحيل فصل واحدتهما عن الاخرى .

ان من يحاول افناء احد الضدين سيفني لا محالة الضد
الآخر ، وبالتالي الحياة نفسها . ان سيرورة الحياة سيرورة
واحدة ، وفي الوقت نفسه متناقضة .

يحاكم الميتافيزيقيون المحدثون الامور على المنوال التالي
تقريبا : ان للمجتمع الراسمالي جوانبه «الخيرّة» و«الرديئة» .
ولشفاء الراسمالية من كل ما فيها من «رداءة» ، يقترحون تطوير
الجوانب «الخيرّة» وازالة الجوانب «الرديئة» . وعندئذ يقوم ،
على حد ما يزعمون ، مجتمع «الازدهار العام» . وهذه المحاكمة
تشبه محاكمة من يبقي ان يحافظ في العضوية البشرية على توالد
الخلايا الجديدة وايقاف عملية فناء الخلايا الهرمة . لكن كما
يستحيل فعل ذلك في العضوية ، يتعذر تحقيقه ايضا في
المجتمع البورجوازي .

ان الاضداد هنا لا تتضايف ، بل تتحد . انها تتداخل لتؤلف
معا ما يسمى بالمجتمع البورجوازي . ولهذا تستحيل «ازالة»
احد جوانبه والمحافظة على الجانب الآخر . لقد سعى العماليون
الانكليز ، عند تسلمهم مقاليد السلطة ، الى «تحرير» بلادهم من
بعض شرور الراسمالية ، ولكن لم تجد محاولتهم هذه نفعا .
وهذا امر مفهوم : فللقضاء على «الجوانب الرديئة» في
الراسمالية ، اي شرورها ، لا مناص من القضاء على الراسمالية
ذاتها . وليس ثمة طريق آخر .

وحدة الاضداد اذن تكمن في كونها مترابطة فيما بينها
ترابطا لا تنفصم له عرى ، وفي كونها تؤلف معا سيرورة متناقضة

واحدة . ان الاضداد لا توجد الا لانها اُضداد .

ان صدام الميول المتعاكسة يسمى صراع الاضداد . وما دام كل شيء ، كل سيرورة ، يتألف من مظاهر متناقضة ، فمن السهل الاقتناع بأن هذه المظاهر في حالة دائمة من التصادم ، من التصارع . ولكن بفعل اي سبب ؟

ان صراع الاضداد ينشأ عن كونها مترابطة فيما بينها ، مؤلفة لوحدة ونافية لبعضها بعضا في آن معا . وفي حالة كهذه ، لا مناص من الاحتكاكات والمصادمات والصراع . وعليه ، اينما وجدت اُضداد تؤلف وحدة ، وجد صراع فيما بينها . وينبغي ان نفهم بهذا الصراع «نزوع» كل ضد الى ان يفوز برجحان الكفة في ظاهرة محددة .

وحدة الاضداد وصراعها موجودان اذن وجودا فعليا . فأيهما يلعب ، والحالة هذه ، الدور الفاصل في التغيير ؟

ليست وحدة الاضداد هي التي تلعب الدور الرئيسي ، وانما يلعبه صراعها . فهو لا يتوقف لحظة واحدة ، وفيه يكمن معنى العلاقات المتبادلة بين الاضداد . فما دامت الاضداد ينفي بعضها بعضا ، فانما تكون بالتالي في حالة من الصراع الدائم . ولهذا اذا كانت وحدة الاضداد نسبية ، مؤقتة ، عابرة ، فان صراعها ، كما يعلمنا لينين ، مطلق مثلما هو مطلق التطور ، ومثلما هي مطلق الحركة . اي ان صراع الاضداد هو مصدر التطور والحركة .

لنتفحص بعض الامثلة .

تظهر نوعية جديدة الى حيز الوجود غب تراكم تدرجي للتغيرات الكمية . لكن ما الذي يطلق حركة هذه السيرورة ؟ حين يسخن الماء ، على سبيل المثال ، تتسارع سرعة حركة دقائقه . وتضعف رويدا رويدا قوة جاذبية الدقائق ، التي بفضلها يحافظ الماء على حالة سيولته . وعند درجة الغليان تضعف الى حد لا يعود معه في وسعها ان تبقي على تماسك الدقائق معا ، فيبدأ

الماء بالتحول بسرعة الى بخار . ويحدث ذلك نتيجة لصراع قوتين متعاكستين : من جهة قوة جاذبية الدقائق ، ومن الجهة الثانية قوة التنافر ، وهما قوتان تنزعان الى فصل الدقائق بعضها عن بعض . ويدوم صراع هاتين القوتين الى ان تأتي لحظة ينحل فيها التناقض : فالقفزة تضع حدا لوحدة الاضداد . وتظهر الى حيز الوجود حالة نوعية جديدة مع تناقضات جديدة : فالماء يتحول الى بخار . وينجم عن ذلك ان انحلال التناقضات يولد نوعية جديدة ، يولد التطور ، الحركة ، التغير .

كذلك حال المجتمع . فحين تفضي التناقضات التي تنخر النظام الرأسمالي الى الثورة الاشتراكية ، فهذا معناه ان الساعة قد أزفت لحل هذه التناقضات . وبنتيحة صراع الاضداد ، وإلغاء التناقضات ، ينهض المجتمع الى درجة اعلى : فالمجتمع البورجوازي القديم يحل محله مجتمع جديد ، المجتمع الاشتراكي . ان صراع الاضداد وإلغاءها هما ، كما نرى ، مصدر تطور المجتمع .

يكمن جوهر قانون وحدة الاضداد وصراعها اذن في كون التناقضات الداخلية ملازمة لكل شيء ولكل سيورة ؛ وهذه التناقضات هي في حالة وحدة لا تفصم لها عرى ، وفي الوقت نفسه في حالة صراع دائم . وصراع الاضداد هذا هو المصدر الداخلي ، القوة المحركة للتغير . وقد قال لينين عن هذا القانون انه اساس الجدل ، جوهره .

لنحاول الان توضيح الخصائص الملازمة لتناقضات الحياة الاجتماعية .

ان التناقض القائم بين الرأسمالي والعامل شيء ، وشيء آخر هو التناقض القائم بين عاملين تتطابق مصالحهما الطبقية . التناقضات في الحالة الاولى لا تقبل توفيقا ، فهي تناقضات طبقية ؛ أما في الحالة الثانية فانها تناقضات تقوم بين رفاق العمل . لهذا يتوجب ، بغية حلها ، التصدي لها بكيفية مختلفة .

الاولى تسمى **التناقضات التناحرية** ، والثانية **التناقضات غير التناحرية** . وتوجد التناقضات التناحرية حيثما وجد صراع بين مصالح لا تقبل توفيقا . والتناقضات التناحرية ، غير القابلة للتوفيق ، هي في المجتمع التناقضات التي تقوم بين قوى اجتماعية متعادية ، بين طبقات . وعنها تتولد منازعات ومصادمات بين كبار الملاكين العقاريين والفلاحين ، بين البورجوازية والبروليتاريا ، بين شعوب المستعمرات والامبرياليين .

وسنوضح ذلك بمثال المجتمع الرأسمالي .

ان المجتمع البورجوازي قد فات أوانه . صار كابحا للتقدم الاجتماعي . ولا سبيل في ايامنا هذه لتنظيم الانتاج بنجاح الا على أسس التخطيط . لكن يتعذر فعل ذلك في شروط الرأسمالية ، لان الملكية الخاصة والمزاحمة والمنافسة الاقتصادية بين الرأسماليين ، بين الشركات ، هي صاحبة اليد الطولى في المجتمع الرأسمالي . وهذا ما يؤدي الى الفوضى في الانتاج ، وينصب العراقيل امام التخطيط ، ويزرع البلبلة في الحياة الاقتصادية . وبفعل ذلك ، تنشب ازمات فيض انتاج بصورة دورية في المجتمع الرأسمالي . وتتزايد البطالة ، ولا يعود في مقدور الجماهير الشعبية شراء البضائع . وهذا ما يجر السى تقليص الانتاج واستفحال البطالة .

وترتبط بهذا التناقض الاساسي جميع التناقضات الاخرى التي تنخر المجتمع الرأسمالي الحديث والتي تقوده الى هلاكه المحتوم .

ان تناحرا عميقا يقسم الدول الامبريالية من جهة ، ومن الجهة الاخرى البلدان التي فازت مؤخرا باستقلالها القومي او التي تناضل في سبيل تحررها . ان شعوب آسيا وأفريقيا والشرق الاوسط وأميركا اللاتينية ما عادت ترغب في تحمل النهب الامبريالي ، فتراها تناضل للانعتاق من نيره . ان التناحر

بين العمل والرأسمال ، والتناقضات بين الشعب والاحتكارات ،
وتفسخ النظام الاستعماري ، والتناقض بين الدول القومية الفتية
والقوى الاستعمارية الهرمة ، ثم - وهذا هو الالم - التقدم
السريع للاشترابية العالمية ، ان هذا كله يقوض ويخرب
الامبريالية ، ويضعفها ، ويختصر ايامها . ذلك هو الواقع
الرأسمالي ، الممزق بالتناقضات التناحرية الداخلية التي تجر
النظام الرأسمالي ، آخر انظمة الاستغلال ، الى هلاكه .

كيف تتم اذن تصفية التناقضات التناحرية ؟

ان التناقضات التناحرية تناقضات لا تقبل توفيقا بين قوى
اجتماعية ، اهداف ، تصورات ، مصالح متعادية ، وتؤدي الى
منازعات ومصادمات ، وتتم ازلتها عن طريق صراع ضار ، عن
طريق ثورة اجتماعية . ولا سبيل الى تصفية هذا التناحر في
اطار العلاقات الاجتماعية القديمة ، بل تستوجب ازالته تدمير
هذه العلاقات بالثورة . هل يعني ذلك ان اشكال وطرائق ازالة
التناقضات التناحرية واحدة على الدوام ؟ كلا . فالامر مرهون
بالشروط التي تتم فيها تصفية التناقضات التناحرية . لهذا
نلاحظ ، في شروط تاريخية مختلفة ، اشكالا مختلفة لازالة
التناقضات التناحرية . فعلى سبيل المثال ، فازت بعض الاقطار
باستقلالها القومي عبر كفاح مسلح طويل النفس ضد
الاستعماريين . ونالته اقطار اخرى عبر نضال جماهيري ، طويل
الامد وعنيد ، من دون ان تدعو الحاجة الى انتضاء السلاح .

تتميز التناقضات غير التناحرية عن التناقضات التناحرية
بكونها تعبر عن تناقضات قائمة بين قوى اجتماعية لها في الوقت
نفسه مصالح حيوية مشتركة . من هذه التناقضات على سبيل
المثال تلك التي تقوم بين الطبقة العاملة والطبقة الفلاحية ، بين
العناصر المتقدمة والعناصر المتأخرة في المجتمع الذي يشهد
حياته على مبادئ جديدة .

في حالة التناقضات غير التناحرية ، التي يتسم بها المجتمع الاشتراكي ، لا تتفاقم حدة التناقضات ، فلا تتعمق ولا تنقلب الى تناحر عدائي . بل على العكس ، فاذا كانت الطبقات متحدة بمصالح حيوية مشتركة ، نزع التناقضات الى ان تخف حدة ، الى ان تتسوى . لهذا تتميز الطرائق المستخدمة في ازالة هذه التناقضات عن تلك التي تستخدم في ازالة التناقضات التناحرية . فتصفيتها لا تتم عن طريق ثورات اجتماعية او انقلابات ، وانما باللجوء الى التربية ، الى النقد والنقد الذاتي ، وكذلك الى طرائق اخرى يفرضها الوضع العيني . والتناقضات في المجتمع الاشتراكي يتم اكتشافها في الوقت المناسب ، وبهذا الشكل يتم اتخاذ الطرائق العينية اللازمة لازالتها . ولذلك لا تؤدي الى وقوع تصادم بين قوى او مصالح متعادية ، اذ ان في المجتمع الاشتراكي وحدة بين المصالح ، كما ان الوحدة الايدولوجية والسياسية للمجتمع قاطبة راسخة وموطدة .

في الاقطار التي خلعت عنها نير الاستعمار ، لا سبيل الى ازالة التناقضات الاجتماعية الا اذا نهجت هذه الاقطار الطريق غير الرأسمالي للتطور . وغياب التناقضات التناحرية في المجتمع الاشتراكي لا يعني البتة انه لا يوجد اي تناقض بوجه عام . ففي ظل الاشتراكية تبرز الى حيز الوجود تناقضات غير تناحرية يمكن التخلص منها في اطار النظام الاجتماعي القائم .
لكن كيف يتم التطور ؟ في اي اتجاه يسير ؟ ان قانون نفسي النفي يقدم لنا الجواب على هذين السؤالين .

٤ - قانون نفي النفي

نعلم جميعا اننا نلاقي عند كل خطوة في العالم الذي يحيط بنا ظاهرة الشيخوخة ، الدمار ، الموت . وايا تكن الظاهرة الطبيعية التي نأخذها كمثال ، نراها تبدأ (اي انه كان ثمة زمن

ولدت فيه) ، تتطور ، تنمو ، تراكيم قوى ، ثم تتوقف .
وكما نرى، يكمن جوهر النفي في ما يحدث في العالم بصورة
دائمة من فسخ وانتفاء وزوال لظواهرات قديمة وولادة ظواهرات
جديدة . وعليه ، يعني النفي تطور ظاهرة ما ، الانتقال بهذه
الظاهرة الى درجة جديدة ، اعلى .

وحتى نفهم الامور على حقيقتها ، يجب ان يبقى مائلا فسي
اذهاننا ان سيرورة نفي وموت الظواهرات التي فات اوانها تتم في
اشكال شتى . فعلى سبيل المثال ، الآلة تهترىء ، وعندما تهترىء
يلقى بها الى مقبرة الحدائد . وهذا مثال على النفي بالمعنى العادي،
اليومي ، للكلمة ، على نحو ما تحدثنا عنه اعلاه .

واذا لم يكن فعل النفي يعني شيئا آخر سوى تدمير الآلة ،
فان هذا الفعل لا يخلق اي قاعدة لتطور جديد . ونظير هذا النفي
تلاقيه في الحياة ايضا . وفي بعض الظروف يغدو ضروريا . بيد
ان الانجاه الغالب للحركة التاريخية هو الخلق .

ان الظواهرات الجديدة التي تظهر في الطبيعة وفي المجتمع
تسير هي الاخرى في دربها المعهود : فبعد مضي فترة من الزمن
تشيخ وتخلي السواح لقوى وظواهرات جديدة . واذا كانت في
السابق جديدة ، وبالتالي نافية لما هو بال ، فانها في الوقت
الحاضر تمسي هرمة بدورها ، وعرضة للنفي من قبل قوى اكثر
حدائة منها . ذلكم هو نفي النفي . وبما ان العالم يشتمل على
عدد لامتناهٍ من الظواهرات ، فان سيرورة النفي سيرورة دائمة ،
متواصلة الى ما لانهاية، اي ان نفي القديم وتوكيد الجديد يتكرران
بلا انقطاع .

الامَ تنتهي هذه السيرورة ؟ هاكم مثالا . ان زراعة نبات من
النباتات تتألف من سلسلة من الاطوار المتلاحقة : إنتاش الحبة ،
نمائها ، نضجها ، الحصاد . وائناء الانتاش تكف الحبوب الموجودة
في التربة عن الوجود ، تكف عن ان تكون حبوبا . انها تواجهه

النفي . وبدءا منها تولد نباتات جديدة ، تزهر ، تخصب ،
واخيرا تعطي ثمارا ، اي حبوبا . ان كل سيرورة زراعة النبات
هي نفي للنفي .

صحيح اننا رجعنا الى نقطة الانطلاق ، لكن ثمة خطوة الى
الامام قد خطيت . واو ان الناس انتهوا عند جني المحصول الى
النتائج الكمية التي كانت قائمة من البداية ، لما كانوا كلفوا
انفسهم جهد فلاحه الارض . ان البداية (بذار الحبة) والنهاية
(جني المحصول) في مثالنا درجتان من التطور مختلفتان نوعيا :
درجة دنيا ودرجة عليا . وعليه ، لا يراوح التطور في مكانه ،
وانما يسير وفق حركة صاعدة .

**يكمن جوهر قانون نفي النفي اذن في ما يلي : خلال سيرورة
التطور تنفي كل درجة عليا وتزيح الدرجة السابقة ، لكنها ترفعها
في الوقت نفسه الى مستوى جديد وتصون كل المضمون الايجابي
المكتسب اثناء تطورها .**

ان النفي الجدلي للنفي يفترض **الصيانة والنفي** على حد
سواء ، لكن ما يسان في هذه الحال هو الايجابي في الظاهرة
القديمة . ولولا ذلك لكان استحال التقدم . ان النفي الجدلي
آن من آناء الارتباط بدرجة التطور السابقة ، انه نتيجة وعاقبة .
ويعبر هذا النفي عن التسلسل الملحوظ في كل تطور . ويكمن
معنى النفي الجدلي ، تحديدا ، في تجاوز درجة التطور السابقة ،
لا في طرحها ونبذها . فعلى سبيل المثال ، لم تظهر الفلسفة
الماركسية من العدم . انما هي مواصلة خصبة لكل قيم ابدعه
الفكر الفلسفي سابقا .
ما طابع التطور ؟

معلوم ان الانسان بدا نشاطه في مضمار العمل بابتكار
الادوات . وفي درجة معينة من التطور التاريخي ، حلت محل
الادوات الحجرية الادوات المعدنية . وهذه الاخيرة هي بنوع ما
نفي الادوات الحجرية ، لكنها تصون في ذاتها جميع العناصر

الإيجابية في الأدوات الأولى ، وعلى سبيل المثال قابليتها لان تقطع ، وشكلها (الذي أورثته الفأس الحجرية على سبيل المثال للفأس الحديدية) ، الخ .

كان ابتكار الآلة تقدما جديدا في ارتقاء أدوات الإنتاج . والنول الآلي هو نفي النول اليدوي . لكنه نفي جدلي ، لان مبدأ عمل النول القديم ظل مصانا بنوع ما . وكذلك هي حال التقنية على الدوام . فأنظمة الآلات الجديدة هي نفي الأنظمة الفاتنة ، لكن مع المحافظة الإلزامية على جميع العناصر الثمينة التي اكتسبها الإنتاج في الماضي .

ذلك هو طابع كل ارتقاء يتم عن طريق نفي النفي . والطور الأعلى يسمى بهذه التسمية لانه يرفع ويفني التطور في مجمله . ونخلص من ذلك الى نتيجة هامة : **ان التطور الذي يتم بطريق نفي النفي يشكل عامل تقدم .**

هذا الاستنتاج يسري على ارتقاء الطبيعة كما على ارتقاء المجتمع البشري . ففي الطبيعة يتمثل الارتقاء في الانتقال من المادة اللاعضوية الى درجة اعلى ، الى الحياة . وفي المجتمع يتمثل الارتقاء في الدرب الذي تم اجتيازه بدءا من نظام المشاعة البدائية ووصولا الى الاشتراكية ، المرحلة الأولى للشيوعية . وكذلك الحال في ارتقاء العلم .

هكذا نرى في كل مكان القانون ذاته : فالارتقاء يتلبس طابعا صاعدا ، اي انه يمضي من الأدنى الى الأعلى ، من البسيط الى المعقد . ذلك هو جوهر قانون نفي النفي .

اما اولئك الذين يسترشدون بتصور بورجوازي ، مثالي ، عن العالم ، فان فكرتهم عن التطور فكرة متشائمة ومعاكسة تماما .

ان بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع البورجوازيين ، الشهود على انهيار العالم الرأسمالي ، يصورون أقول هذا النظام وكأنه

أزمة في الثقافة ، في الفكر ، في المذهب الانساني بوجه عام .
انهم يتكلمون عن «الكارثة الذرية» ، عن «نهاية كل حضارة» ، عن
«نهاية العالم» ، الخ . لكن العلم والممارسة يدحضان توكيدات
الفلاسفة البورجوازيين هذه . فالارتقاء الصاعد للطبيعة والمجتمع
الانساني قانون موضوعي ، لا يقبل فسحا .

والشاهد عليه النجاحات التي تمتزعها البلدان الاشتراكية
في تنمية اقتصادها وتطوير ثقافتها . وتؤكد ايضا خطط تنمية
الاقطار التي خلعت عن كاهلها نير الاستعمار .

ولئن خالجننا احيانا انطباع بأن نتيجة نفي النفي هي العودة
الى الماضي ، فذلك ليس الا في الشكل وحده ، أما في الواقع ،
فان ما كان آنف الوجود يغنى ويرفع الى درجة اعلى في خلال
سيرورة النفي .

ان تقدم الطبيعة والعلم اشبه ما يكون باللولب . فهو ينطوي
على عدد كبير من اللغات ، لكن هذه اللغات لا تلتقي ابدا ، لا يكرر
بعضها بعضا ابدا . أرايتم كيف يكون صعود درج حلزوني ؟ انه
ليخيل اليها ان من يصعد يلف حول نفسه ، لكنه في الواقع اذ
يلف على نفسه يصعد الى اعلى فأعلى باستمرار . وهذا لانه يتبع
لولبا لا دائرة . هذا التشبيه يعبر عن جوهر قانون نفي النفي .

يتم الارتقاء اذن وفق مسار لولبي ، ومع كل لفة جديدة
(نفي) تظهر نوعية جديدة ، مما يرفع الارتقاء الى درجة اعلى .
في الحياة اليومية ، نفهم الجديد على انه ما يصنع لاول
مرة ، ما يظهر حديثا . لكن المعنى الفلسفي لهذا المفهوم مغاير
قليلا ، واكثر عمقا . فاذا ظهرت في الغرب ، على سبيل المثال ،
مدرسة فلسفية تسمى بالجديدة ، لكنها تكتفي تحت قناع الجدة
بأن تنفخ الحياة من جديد في افكار بالية كان قد قام الدليل على
تهافتها منذ زمن بعيد ، فاننا لا نستطيع البتة ان ندعوها ظاهرة
جديدة . بل على العكس ، فهي ظاهرة قديمة ، فات اوانها ، ولا

مستقبل لها .

غالبا ما يظهر القديم في الحياة تحت قناع الجدة . وهذا شكل كثير الشيوخ ، شكل مبطن لصراع القديم ضد الجديد . لناخذ مثلا .

معلوم ان اشكال الاستعمار قد شهرت افلاسها . واليوم يسعى الامبرياليون الى فرض اشكال جديدة من التبعية الاستعمارية على البلدان المتحررة حديثا ، باقتراحهم تقديم «المساعدة» للدول قيد التطور ، وبإنشائهم اتحادات موالية لهم ، الخ . لكن الاستعمار الجديد ليس بأفضل من القديم . والشعوب المتحررة تفهم ذلك تماما وتواصل مكافحة الاستعمار الجديد . تقصد المادية الجدلية بالجديد كل ظاهرة تسجل تقدما . الجديد هو ما هو متقدم ، ما هو مرتبط ارتباطا حتميا بالتجديد ، بالتطور الذي يتم من الأدنى الى الأعلى .

ما العلاقات التي تقوم اذن بين الظاهرات القديمة والظاهرات الجديدة ؟ ينبغي ان ننوه بادىء ذي بدء بأن الجديد لا يظهر بمنأى عن القديم وخارجا عنه ، وانما في قلبه وفي رحمه ؛ ففي القديم تتكون بذور الجديد او شروط ظهورها . وكلما نما الجديد وتطور ، دب الوهن في القديم وذهبت ريحه ، بينما يترعرع الجديد ويشتد ساعدا . ان الجديد هو على الدوام النفي الجدلي للقديم ، نتيجة صراع الاضداد . **والطابع الذي لا يقهر الجديد هو** قانون من قوانين التطور التاريخي . ويؤكد عصرنا ذلك توكيدا ساطعا ، لانه انما على انقراض النظام الاستعماري القديم رأت النور دول فتية جديدة . وتلك قوة جديدة ، لا تقهر ، في النضال ضد الامبريالية .

والآن ، وبعد ان درسنا قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية ، وقانون وحدة الاضداد وصراعها ، وقانون نفي النفي ، سنتصدى لتمحيص مقولات الجدل الماركسي .

ما مقولات الجدل الماركسي ؟

لا يستطيع بنو الانسان الاستغناء عن مدركات ومفاهيم عامة . فالفيزيائيون ، على سبيل المثال ، يدرسون خواص مختلف الاجسام ، كقابليتها للمحافظة على الحالة البدائية لركودها او لحركتها الاحادية الشكل . لكنهم لا يستطيعون الاقتصار على ذلك . فثمة سؤال يطرح نفسه عليهم لا محالة : لماذا تتجلى هذه الخواص في الاجسام كافة ، وما المشترك بينها ؟ هكذا صاغ الفيزيائيون ، بدراستهم خواص اجسام منفردة ، مفاهيم عامة مثل «العطالة» و«الكتلة» ، مقياس عطالة الاجسام . ولم يكتفوا بدراسة عطالة بعض الاجسام وكتلتها ، بل اعطوا تعريفا عاما لهاتين الخاصيتين . وعلى نحو مماثل ، تكوّن في الفيزياء المفهوم العام «الطاقة» .

لكن هل تكفينا هذه المقولات التي تقررها العلوم العينية ؟ انها لا تتجاوز ابدأ اطار العلم الذي قام بتحديددها . والحال اننا نعلم انه توجد خواص عامة للاشياء والظواهرات ، والفلسفة هي التي تصوغ المفاهيم العامة ، المناظرة لهذه الخواص .

تنعكس اعم خواص الاشياء في المقولات الفلسفية نظير «المادة» و«الحركة» و«المكان» و«الزمان» و«النوعية» و«الكمية» و«التناقض» الخ . والمقولات الفلسفية هي اهم المفاهيم . وعليه ، لا يمكن الاكتفاء بالمقولات التي تنشئها الفيزياء والكيمياء وسائر العلوم الخصوصية . وفي سريرة المعرفة تتم صياغة مقولات فلسفية لكي تعكس اعم خواص الظواهرات . وسوف نتفحص فيما يلي مقولات العلة والمعلول ، الضرورة والاحتمال ، الضرورة والحرية ، المضمون والشكل .

ما مضمون مقولتي «العلة» و«المعلول» ؟
تقول لنا التجربة انه لا تظهر ظاهرة بدون علة ، «من تلقاء ذاتها» ، وانما تتولد اما عن تطورهما السابق وإما عن ظاهرات اخرى . لا شيء ينبجس من العدم . لكل ظاهرة منبعها ، ما تتولد عنه ، وذلك ما يسمى بـ «العلة» . العلة هي ما يحفز ، يخلق ، ينتج ، يولد ظاهرة اخرى . وما يظهر الى حيز الوجود بفعل العلة يسمى بـ «المعلول» .

على سبيل المثال ، حين يأتي فلاحو تعاونية من التعاونيات بأسمدة لحقول الارز او القطن ، يرفعون مردود هاتين الزراعتين . الاسمدة اذن هي العلة ، وارتفاع المحصول هو المعلول .

تعكس اذن مقولتنا «العلة» و«المعلول» الفلسفتان العلاقة بين ظاهرتين ، الاولى منهما ، وتسمى العلة ، وتولد بالضرورة الاخرى ، وتسمى المعلول ، وهذه العلاقة تسمى العلاقة العلية .

ان العلاقة بين الاسمدة التي توضع في التربة وبين مردود الزراعات توجد وجودا مستقلا عن وعينا في الواقع بالذات ، في الطبيعة . ويتضح من هذا المثال ان كل علاقة عليية تتولد فعلا وواقعا عن اشياء موجودة . اهم سمة لعلاقة العلة بالمعلول هي اذن طابعها الموضوعي .

ان المفكرين الذين يتمسكون بوجهة النظر القائلة انه يوجد في الطبيعة والمجتمع انشراط علي كوني للظواهرات ، مستقل عن الانسان ، يسمون بالاحتميين . فهم يعتبرون ان جميع ظاهرات الطبيعة تظهر بفعل هذه العلة او تلك ، بموجب هذا القانون او ذاك . فكل ما يحدث في العالم ضروري لان كل شيء محدد سلفا ، او كما يقول الفلاسفة محتم .

ما ونى الاحتميون على مر التاريخ يكافحون النفي المثالي للعلية الاحتمية . ان المثاليين من شتى الميول والالوان ينطلقون

من المبدأ القائل ان الانسان يخلق العلية لـ «راحتة» ، لكي يدخل النظام على «سديم ظاهرات الطبيعة» . هكذا حاول الفيلسوف بيركلي ، المثالي الموضوعي ، ان يدحض فكرة العلية بالذات . وقد سعى سائر المثاليين ، في الواقع ، الى الغرض نفسه ، بنفيهم الوجود الموضوعي للعية .

كانوا يبنون أطروحتهم عن الطابع الذاتي للعية على المحاكمات العقلية التالية . ان شمعة مشتعلة تحرقنا في كل مرة نلمس فيها شعلتها . لكن لا ينجم عن ذلك ، على ما يزعمون ، انها ستحرقنا بالحثم والضرورة في المرة التالية . فكذلك كانت الحال لآلف مرة ، لكن قد لا تكون كذلك للمرة الواحدة بعد الآلف . لقد نجم الحرق حتى يومنا عن شمعة مشتعلة ، لكن هذا لا يعني البتة ان الآخرة هي علة ذلك الحرق .

يقولون : ان هاتين الظاهرتين - الشمعة المشتعلة والحرق - ظاهرتان متضايفتان ، لكن تضائفيهما هذا لا يعني وجود علاقة علية بينهما . ان هذه المحاكمات العقلية غير صحيحة ، وإليكم السبب . فنحن لا نصدر حكمننا على العلة بناء على ملاحظات لا غير . وانما ندرس العلية انطلاقا من التجربة ، من الممارسة التي تبين لنا على نحو لا ممرارة فيه السبب الذي يجعل النار ، على سبيل المثال ، حارقة لنا لا محالة .

توجد في العالم كمية لامتناهية من الروابط العلية ، لكنها لا تلعب جميعا دورا متماثلا . فبينها ما هو اساسي . وهي بالتحديد التي يتوجب علينا ان نعرف كيف نميزها قبل غيرها . كيف نفعل ذلك ؟

اننا نرى بأم أعيننا ان الذرة المزروعة لم تنبت ، فنبادر الى البحث عن علة ذلك . وبما ان الروابط والعلاقات بين الظاهرات عديدة ، فقد تكون عللها ايضا عديدة . بيد ان التحليل يبين لنا على الدوام ان هناك عللا رئيسية ، اساسية ، تحدد سائر العلل

الآخري . وفي مثالنا الآنف الذكر يمكن ان تكون العلة الرئيسية نقصا في الحرارة ، زيادة في الرطوبة ، مواقيت غير مناسبة للبذار ، سوء نوعية الحبوب ، الخ .

انه لمن الاهمية بمكان وضع اليد على العلة الرئيسية ، لانهما هي التي ستتيح لنا ان نمارس تأثيرا حاسما على المعلول . بيد ان ما قلناه لا يعني البتة انه من المباح لنا ان نهمل العلة الثانوية . فهذه العلة لا بد من تمييزها بدورها ، واذا كانت تربكنا وتزعجنا ، فمن الواجب ان نسعى الى ازالتها .

ما دامت العلة تولد المعلول ، فبينهما اذن صلة ما . ويتصور الميتافيزيقيون هذه الصلة على نحو احادي الجانب ، فلا يرون فيها سوى فعل العلة في المعلول . لكن الا يفعل المعلول في العلة ؟ ان الميتافيزيقيين لا يستطيعون الاجابة على نحو صحيح على هذا السؤال ، لانهم يفضلون الضدين المتمثلين في العلة والمعلول واحدهما عن الآخر . وهم يحاكمون الامور على النحو التالي : ان ظاهرة من الظاهرات يمكن ان تكون علة او معلولا . واذا تجلت في شكل علة ، فلا سبيل الى ان تكون بعد ذلك معلولا .

والحال ان ذلك غير صحيح . فبين العلة والمعلول تأثير متبادل . فبم يكمن ؟ سوف نبين ذلك من خلال مثال . ان المادة والكيونة تولدان الوعي ، لكن الوعي يمارس بدوره تأثيرا على الكيونة ويفعل فيها . ويتبين من ذلك بجلاء تام تفاعل العلة والمعلول ، تأثيرهما المتبادل .

هل يعني ذلك ان العلة والمعلول يشترط كل منهما الآخر بقدر متساو ؟ كلا بالطبع ، لان العلة في علاقتها بالمعلول هي التي تلعب الدور الفاصل . انها هي التي تحدد العلاقة المعطاة ؛ اما المعلول فانه يلعب - يجب ان يكون ذلك مفهوما لدينا - دورا هاما ، لكن ثانويا . وليس امرا عديم الاهمية ان نعرف ما الظاهرة التي ينبغي اعتبارها علة ، وما تلك التي ينبغي اعتبارها معلولا . تماما كما انه ليس امرا عديم الاهمية بالنسبة الى العلم

معرفة هل المادة هي التي تولد الوعي ام العكس . بيد ان ذلك لا يعني انه في الامكان التفاضلي عن التأثير الذي يمارسه المعلول على العلة وإسقاطه من الحساب .

ان لمفهوم التفاعل او الفعل المتبادل معنى آخر ايضا . وبوسعنا تفسيره من خلال المثال التالي . فالمحراث الحديدي يفلح التربة خيرا مما يفلحها المحراث الخشبي ، والتربة الاحسن فلاحه تدر على الفلاحين المزيد من المحاصيل ، الخ . ويترتب على ذلك ان الحقل الجيد الفلاحه يلعب هنا دور المعلول بالنسبة الى المحراث الحديدي ، ولكنه يلعب ايضا دور العلة بالنسبة الى المحصول الوفير ؛ وهذا الاخير يشكل بدوره علة ازدهار الشعب . والحق انه تواجهنا هنا سلسلة حقيقية من العلاقات العلية .

اذا أمعنا النظر في هذا التسلسل ، اتضح لنا انه يتألف من ظاهرات مترابطة . ومن الواجب ان ننظر الى كل علة والى كل معلول لا على حدة ، وانما بالترباط مع سائر الظاهرات التي تولد عنها والتي تولدت عنهما . وفي هذه الحال تقوم ظاهرة بعينها مقام العلة والمعلول في آن واحد . فهي علة بالنسبة الى الظاهرة التي تولدت عنها ، ولكنها معلول بالنسبة الى الظاهرة التي ولدتها . ومن وجهة النظر هذه لا يعود المعلول والعلة يؤلفان قطبين منعزلين ، متعارضين ، وانما هما حلقتان في سلسلة معقدة من الوقائع والظاهرات التي يفعل بعضها في بعضها الآخر . وعليه ، وعلى حد تعبير انجلز ، يوجد في العالم تفاعل عام يكمن في واقع ان العلة والمعلول يبدلان مواضعهما باستمرار ؛ فما يكون في بعض الشروط المكانية والزمانية علة يصحح في شروط اخرى معلولا ، وبالعكس .

ان المذهب المادي الجدلي عن العلية لذو اهمية كبيرة فسي تنفيذ جميع ضروب الخرافات . فكثيرا ما يقيم المتطيرون والمؤمنون بالخرافات من الناس علاقة

علية بين ظاهرتين اثنتين ، بالاستناد الى علائم خارجية صرف ،
لمجرد أنهما متعاقبتان في الزمن ، مع ان هذا التجاور عرضي
تماما .

حين يتوصل الانسان ، بتجاوزه ظواهر الامور ، الى العلل
الفعلية للظواهرات ، لا يعود يخشاها ، ولا يعود متطيرا . اليكم
مثالا . مر زمن كان فيه المسافرون الذين يجتازون افريقيا
يؤكدون انهم راوا «في السماء» حدائق الفردوس الشاسعة .
وكانوا يروون احيانا انهم شاهدوا مركبا طائرا يعتلي ظهره بحارة
اشباح . ثم كان كل شيء يختفي . ماذا كانت حقيقة الامر ؟ لقد
كان الناس ، ما دامت علته مجهولة ، يبنون حوله الخرافات .
لكن في زمن لاحق فسر العلماء علة تلك الظواهرات الخارقة
للمألوف : ففي البلدان الحارة ، وفي ايام الصحو ، يغدو الهواء
اكثر كثافة ، فيؤلف مرآة هائلة الحجم ، وتنعكس على هذه
«المرآة» الاشياء الموجودة على البر او في البحر ، من حدائق
ومراكب الخ . كان الناس يرون اذن انعكاس حدائق حقيقية
موجودة على الارض ، وليس جنات الفردوس ؛ كما كانوا يرون
انعكاس مراكب تمخر العباب وليس مراكب طائرة . وقد كفى
ان توضع اليد على علة هذه الظاهرة حتى انقشع الخوف المتطير
الذي كان يعتري الناس امامها .

معرفة العلل تحررنا اذن من الخرافات .

وتساعدنا دراسة العلل ايضا على فهم واحدة من أغرب
ظواهرات الطبيعة ، ونعني بها ما نلاحظه فيها من نظام .
حسبنا ان تلقى نظرة خاطفة على العالم المحيط حتى نكتشف
مدى تناغمه و«انضباطه» . ويتجلى تناغم الطبيعة هذا ، على
سبيل المثال ، في تكيف الحيوانات والنباتات مع شروط وجودها ،
مع الوسط المحيط .

يؤكد الفلاسفة المثاليون، العاجزون عن تفسير ظاهرتي الذكاء
والنظام اللتين تلاحظان عند كل خطوة في الطبيعة ، ان ظهور

الاشياء جميعا وتطورها يتحددان بغايتها ، بالهدف الذي وجدت من اجله ، وليس بعلم مادية ، بقوانين الطبيعة بالذات . هكذا نراهم يتحدثون عن «الغائية» .

وهذا المذهب يسمى الهدفية Téléologie (من اللفظة اليونانية Télós ، وتعني الهدف) .

وقد لاحظ انجلز ، في معرض هزئه بتلك المحاكمات ، ان القطط خلقت ، بموجب التصور الهدفي للعالم ، كي تأكل الفئران ، والفئران خلقت كي تأكلها القطط ، والطبيعة بأسرها وجدت كي تبرهن على حكمة خالقها .

وما يزال المثاليون ، حتى يومنا هذا ، يحاولون ان يشدوا الهدفية الى جانبهم .

لكن هل للهدفية من قيمة علمية ؟ لنتفحص الامر .

ينبغي ان نتذكر بادىء ذي بدء اننا مهما صدعنا رأسنا بصدد مسألة معرفة ما الغاية ، ما الهدف الذي ظهرت من اجله هذه الظاهرة او تلك ، فلن نسلط أي ضوء على طبيعتها . فلكي نفهم ظاهرة من الظواهر ينبغي ان نعترف العلة التي ولدتها ، والظواهر التي ترتبط بها . وانما بعد تساؤلنا عن علة هذا التنظيم المدهش للطبيعة ، عن سببه ، يصير في وسعنا ان نفهم ماهية الظواهر التي تحدث فيها ، ووجهة النظر الهدفية موجهة ضد هذا التفسير العلمي ، العلي ، لظواهر الطبيعة .

هاكم مثلا يقطع كل شك . قبل العاصفة تسعى الاسماك الى الابتعاد عن المنطقة الساحلية بقدر الامكان كيلا ترمي بها العاصفة عند هبوبها على الشاطئ . وتختفي الهلاميات البحرية هسي ايضا . وفي المستطاع وصف مثل هذا السلوك بأنه «ذكي» .

حين نحلل سلوك هذه الحيوانات يصعب علينا ان نتخلص من الفكرة التي توحي الينا بأننا نواجه هنا شيئا «عجائبيا» . لكن حين يكشف العلم العلة الحقيقية ، يصبح كل شيء واضحا .

وقد بيّن العلم انه حين تهب عاصفة بعيدا عن الشاطئ ، تصل اليه موجات صوتية لا تدركها الاذن البشرية . وتنتشر هذه الموجات على مدى آلاف الكيلومترات . ولهذا اذا ما هبت عاصفة بعيدا عن الشاطئ ، سبقتها نذرها اليه بمدة طويلة . وحيوانات البحر تسمع هذه الاصوات ، وذلك بخلاف الانسان . ولهذا «تستشعر» العاصفة وتنسحب الى مكان اكثر امانا . و«سلوكها الذكي» يقوم هنا على اسباب واقعية ، طبيعية . وليس في الامر هنا شيء خارق للطبيعة . هكذا نرى ان العلم هو وحدة المؤهل لتفسير النظام الملحوظ في الطبيعة .

كيف نفسر النظام الذي نلاحظه في الطبيعة الحية ؟ لقد بيّن داروين ان لهذه «الغائية» علها : فالكائنات الاكثر كمالا ، الكائنات المتكيفة على احسن وجه مع شروط الوسط ، يكتب لها لا محالة البقاء على قيد الحياة في صراعها من اجل تكيف افضل مع شروط الحياة ، او بتعبير آخر في كفاحها من اجل الوجود . وذلك «الذكاء» الذي يدهشنا كثيرا في عالم الاحياء هو نتيجة ارتقاء طويل الامد ، نتيجة عمل قوانين الطبيعة .

والآن ، وبعد ان درسنا مقولتي العلة والمعلول وأهميتهما ، يجب ان نلاحظ ان العلل قابلة للتباين : فبعضها يولد ظاهرات لازمة ، وبعضها الآخر يولد ظاهرات محتملة .

اللزوم والاحتمال

ذات يوم اخذ العالم الفرنسي انطوان بيكريل (١٨٢٥ - ١٩٠٨) من عند الفيزيائي الشهير بيري كوري (١٨٥٩ - ١٩٠٦) كمية ضئيلة من الراديوم ليقوم بتجربة عليها امام تلامذته فسي محاضرة له . ووضع انبوب الراديوم في جيب سترته . وبعد بضعة ايام لاحظ بيكريل على جلده ، في الموضع الذي كان فيه

جيب سترته ، احمرارا يذكر شكله بشكل الانبوب الذي كان يحتوي على الراديوم . وكان هذا الحادث العارض حافزا على البدء بدراسة التأثير الذي تمارسه اشعاعات الراديوم على العضوية البشرية . هل ينبغي ان نستنتج من ذلك انه لسولا الحادث العارض المشار اليه ما كان الناس ليعرفوا شيئا عن سرطان الدم ، عن الخطر المميت الذي ينطوي عليه الراديوم ؟

ثمة جوابان على هذا السؤال . بعضهم يقول ان كل شيء في العالم لازم وانه لا وجود للاحتمال . ويؤكد آخرون على العكس ان كل شيء محتمل .

من المصيب ؟

الطرفان يجانبان الصواب ، لانهما يفصلان الاحتمال واللزوم واحدهما عن الآخر . فعلى سبيل المثال ، علام يقوم يقيننا بان الشمس ستشرق ، وبان النهار سيعقب الليل ؟ على الممارسة ، على تجربة طويلة ، على معرفة قوانين الطبيعة . فتعاقب النهار والليل يتولد عن دوران الارض حول محورها ، وتعاقب الفصول يتولد عن دوران الارض حول الشمس .

ان مقولة اللزوم الفلسفية تفيدنا على وجه التحديد فسي تعيين الترابط المتواصل بين الظاهرات . فليس اللزوم ما يمكن ان يكون او الا يكون ، وانما ما يجب ان يكون بالحتم والضرورة ، ما يتولد عن علل عميقة ، وما ينبع بالتالي من طبيعة الظاهرات بالذات .

هل للمصادفة من وجود ؟ لناخذ مثالا . وقع انسان ضحية حادث سيارة . مصادفة بليدة وضعت نهاية لحياته . لماذا نقول عن هذه الظاهرات انها محتملة ؟

الحادث المحتمل يمكن ان يحدث ويمكن الا يحدث . هل كانت حياة هذا الانسان ستقوده بالضرورة الى ذلك الحادث الذي لاقى فيه حتفه ؟ كلا . لا نستطيع ان نصف اشباه هذه الاحداث

بأنها لازمة . وانما هي مصادفة . وما كان التطور الداخلي للظواهر ليقود البتة الى ما حدث .

حين فتح بلد السوفييتات لأول مرة في تشرين الاول ١٩٥٧ طريق الفضاء بإطلاقه قمرا صناعيا من نوع سبوتنيك ، أكد بعض محترفي الدعاية البورجوازيين ان ذلك الحدث حدث منعزل وعارض . فهل هذا صحيح ؟ كلا . فذلك النجاح يفرس جذوره في النظام الاشتراكي بالذات ، في العناية التي يحاط بها في بلد الاشتراكية تطور العلم والتقنية .

يشهد اطلاق السبوتنيك على نضج التقنية السوفياتية ، على المنجزات الهامة للعلم السوفياتي في فروع حاسمة كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والعدانة ، يشهد على الطابع التقدمي للتعليم العام في الاتحاد السوفياتي . فكيف يمكن الكلام والحالة هذه عن مصادفة ؟ يقال عن حدث ما انه وقع بالمصادفة اذا كان لا ينجم عن طبيعة سيرورة معينة . والحال ان السبوتنيك قد أعد له العدة تاريخ الاتحاد السوفياتي بأسره .

وعليه ، للاجابة على السؤال المتعلق بمعرفة هل هذه الظاهرة او تلك محتملة او لازمة ، لا بد ان نتبين هل نجمت الظاهرة المذكورة عن علل داخلية او خارجية . فاذا ما أنزل إعصار الاذى ببستان مزروع ، فهل يكون ذلك من قبيل الاحتمال او اللزوم ؟ بديهي ان للاعصار علله . لكن هل كان من المحتم ان يلحق الاذى بالبستان ؟ كلا ، وإليكم السبب . فالاعصار لا يمكن ان يهب بدون علل . لكن هذه العلل خارجية وعابرة بالنسبة الى البستان ، ولا تنجم عن المبادئ الاساسية لنموه وتطوره . ولهذا فان الحدث ذاته محتمل . ولم يكن تلف البستان امرا محتوما . وتأثير الاعصار في ذلك البستان دون غيره احتمال ، وان كانت اشباه هذه الحالات يتكرر وقوعها .

واضح اذن ان الاحتمال واللزوم ضدان . ولكن هل يمكن ان

نستنتج من ذلك ان الاحتمال والضرورة لا تجمع بينهما صلة
مشتركة ؟

• يحاكم الميتافيزيقيون الامور على النحو التالي تقريبا : اللازم
لا يمكن ان يكون محتملا ، والمحتمل لا يمكن ان يكون لازما . فهل
الامور كذلك حقا ؟ ان في الحياة ، في الواقع ، نقاط تماس
عديدة بين الاحتمال واللزوم ، لترابطهما الوثيق فيما بينهما .
وليس من سبيل الى فصل واحدهما عن الآخر . وخلف واجهة
الاحتمال ، ينبغي ان نعرف كيف نكتشف على الدوام اللزوم
والقوانين التي ينشأ عنها .

يترتب على ذلك انه لا وجود لا في الطبيعة ولا في المجتمع
لظواهر لازمة «فقط» او محتملة «فقط» . فاللزوم يتجلى على
الدوام في شكل الاحتمال . وليس ثمة اثر من الاحتمال في
كون شجرة المنجة تنمو في الاقطار الدافئة . ولكن كثرة عدد
اوراقها وكون كل ورقة ذات طول معين وشكل معين مرهونان
بجملة من الظواهر المحتملة ، بما في ذلك كمية قطرات المطر
التي روت الشجرة ، والرياح التي عانت من فعلها ، الخ . المحتمل
واللازم متشابكان اذن ومتداخلان .

يرى الميتافيزيقيون ان للظاهرة اللازمة علتها ، بينما ليس
للظاهرة المحتملة علة . ولكن لا يمكن لاي ظاهرة ان تظهر بدون
علة . ولكل ظاهرة محتملة علة ايضا . فبمَ يكمن اذن الفرق ؟
يكمن في ما يلي . فالعلة تتجلى على انها شيء داخلي في
الظاهرة اللازمة ، وخارجي في الظاهرة المحتملة .

وعليه ، فان نقص الاغذية الملاحظ في الاقطار المتخلفة
مشروط بالمردود الاقتصادي الضعيف الموروث عن الماضي
الاستعماري . وهذه علة داخلية لنقص الاغذية في تلك الاقطار .
لكن كمية الاغذية يمكن ان يطرا عليها المزيد من التقلص تحت
تأثير علل خارجية ، علل من اشباه الفيضان او الثوران البركاني
او الاعصار ، الخ .

وعليه ، اذا كان التصور الجدلي عن الاحتمال يؤكد ان لكل شيء علة فانه يحرص على التمييز بين العلل المحتملة ، التي كان من الممكن الا تكون ، وبين العلل اللازمة التي ترتبط بالميسول العميقة لتطور الظاهرات . ولهذا فان العلية لا تعني اللزوم ، مهما تنوعت مزاعم الميتافيزيقيين . والمادية الجدلية ، اذ تؤكد ان لكل شيء علة ، تعترف ايضا بالاحتمال . ويركز العلم اهتمامه على دراسة اللزوم ، على قوانين الظاهرات التي هي قيد تطور ، لان العلم مدعو اساسا الى الكشف عن ميل هذا التطور واتجاهه .

لقد وجه العالم السوفياتي الشهير متشورين (١٨٥٥ - ١٩٣٥) لاذع النقد الى العلماء الذين يجعلون معولهم على الاحتمال ، لا على دراسة قوانين تطور الطبيعة . كان يقول : انا لا نستطيع انتظار نعيم الطبيعة ، وانما مهمة العلم ان ينتزعها منها انتزاعا .

يعلم كل جيولوجي ان العلماء ما كان يمكنهم ان يتوصلوا الى الاكتشافات الكثيرة التي اكتشفوها لو انهم اهتموا بهدي المصادفة . فلقيام بتنقيب جيولوجي سليم ومثمر ، لا بد من دراسة القوانين التي تتحكم في بنية القشرة الارضية واستلهامها في الممارسة العملية . وفي هذه الحال لا يعود المنقب رهين «الحظ» ، بل تكفل أبحاثه بالنجاح لا محالة .

اذا كانت الظاهرات المحتملة قابلة لان تكون او لان لا تكون ، فهل في وسعنا دراستها ؟ وما القوانين التي تخضع لها ؟ حتى نجيب على هذه الاسئلة ، لنقم اولا بتجربة صغيرة . لنرم في الهواء قطعة من النقود . انها ستعاود السقوط اما من جانب الطرة وإما من جانب النقش .

ولا يسعنا ان نعرف سلفا الجانب الذي ستقع عليه قطعة النقود . ولكن لو رمينا بها ٥٠٠٠ مرة على سبيل المثال ، للاحظنا انها تسقط ٢٥٠٠ مرة تقريبا على جانب الطرة و ٢٥٠٠ مرة على

جانب النقش . ثمة اذن نظام معين يجد تعبيره في نظرية الاحتمالات .

لنأخذ مثلا آخر ، من سيولد في اسرة بعينها ؟ اذكر أم انثى؟ من النظرة الاولى ، لا يخضع هذا الحدث لاي قانون . ففي بعض الاسر يمكن ان يولد صبيان فقط ، وفي اسر غيرها بنات فقط . لكن الملاحظات التي أجريت على عدد كبير من الاسر قد تمخضت عن اكتشاف تواتر معين : فولادة الصبيان والبنات تخضع للنسبة التالية : فمقابل كل ١٠٠ بنت يولد ١٠٥ صبيان .

ماذا تعني هذه الوقائع؟ ان القوانين التي تتحكم في الظواهر المحتملة تبقى عصية على الادراك ما دام عدد الحالات المرصودة صغيرا ، لكن النقاب يزاح عنها متى رصد عدد كافٍ من الوقائع، وذلك ما يسمى بقانون الاعداد الكبيرة .

نحن قادرون اذن على دراسة الظواهر المحتملة وعلى اكتشاف القانون الناظم لوجودها . وقد اكتشفت الفيزياء الحديثة ، التي تدرس حركة الكهارب وجزيئات المادة الاخرى ، ان حركة الجزيئات تخضع لقوانين لها طابع احصائي . العلم الحديث ، كما نرى ، يدرس لا الظواهر اللازمة فحسب ، بل ايضا الظواهر المحتملة . ولدراسة الظواهر الاخرى اهمية عملية ايضا .

ان العديد من الاحتمالات موائمة للانسان ، بيد انه ثمة احتمالات اخرى لا تعود عليه الا بالكوارث والالام : ومن قبيل ذلك الرياح التي تهب من الصحارى ، والجفاف ، والفيضانات ، والآفات الاخرى . ويسعى العلم ، بالاستناد الى دراسة لزوم القوانين ، الى الحد من فعل هذه الآفات . كيف يمكن اذن الحد من فعل ما ليس منوطا بارادة الانسان ؟ الحق انه لا يمكن ، على الدوام ، تلافي الاحتمالات ، ولكن من الممكن ومن الواجب اتقاء شر آثارها . لا سبيل في الوقت الحاضر ، على سبيل المثال ، لتلافي الاحتمالات المرتبطة بنزوات الطقس التي قد تؤدي الى تلف

المحاصيل ، وحتى الى بوار البذور . ولكن من الممكن الحد من آثارها الضارة عن طريق التأثير على الشروط التي تتجلى فيها . لهذا ينبغي خلق شروط يتقلص فيها الى أدنى حد ممكن اثر الاحتمالات الضار او ينعدم تماما .

ان ما قلناه ينطوي على اهمية خاصة بالنسبة الى الزراعة التي يرتهن امرها اكثر من الصناعة بكثير بتقلبات الطقس . فري الحقول واستخدام الاسمدة وتطبيق التقنيات المختلفة تحمي الزراعة من الاحتمالات غير المرغوبة .

ليس الانسان اذن بعاجز امام «المصادفة» ، انما هو يملك القدرة على شل آثارها الضارة او تقليصها الى ادنى حد . وترتبط مشكلة الحرية وثيق الارتباط بمقولة اللزوم او الضرورة .

الضرورة والحرية

يبين لنا التاريخ ان انتصار الاشتراكية على الرأسمالية ضرورة تاريخية . والتعايش السلمي بين النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي ضروري تاريخيا .

فهل من داع ، والحالة هذه ، لبذل الجهود وتجشم المشاق للاخذ بناصر ما لا مناص من حدوثه بحكم الضرورة التاريخية الطبيعية ؟

لقد تواجه الجبريون والارادويون (١) قرونا وقرونا بصدد هذه النقطة .

١ - القديرون بلغة قدامى الفلاسفة وعلماء الكلام العرب . «م»

يعزو الارادويون الى الارادة البشرية الدور الحاسم في تطور العالم (من هنا جاءت تسمية «الارادوية»). ولا يقيمون اعتبارا للشروط الموضوعية ، للقوانين ، للضرورة التاريخية . يفهمون الحرية غيابا لكل «إكراه» . والحال ان هذا التصور مفلوط . فلا شيء في العالم يظهر ويفعل فعله بلا علة . لهذا لا يسع الارادة البشرية هي الاخرى الا تكون مرتبهة بأي شيء ، وأن تفعل ما تشاء كما يحلو لها .

وتصور الجبريين معاكس تماما . فهم يؤمنون بقدر محتوم ، ويقوم ايمانهم على التصور الذي يقول ان كل ما في العالم مقدر سلفا وان الانسان عاجز عن ان يغير فيه شيئا .

تقضي آراء الجبريين على البشر بعدم الفاعلية . ولو اخذنا بتصورات الجبريين بحرفيتها ، لما فعلنا شيئا سوى تكتيف أذرعنا . هذا المذهب يجرد اذن الشفيلة من ايمانهم بقواهم ، من ايمانهم بقدرتهم على الاطاحة بالانظمة الرجعية التي تستغلهم .

نستطيع ان نتبين من خلال المثال التالي مدى ضرر الجبرية . ففي الغرب يحاول بعضهم ان «يثبت الضرورة المحتومة» للحروب ولسباق التسليح . الانسان في رأي هؤلاء عاجز حيال الحرب ، مع ان سياسة الكفاح في سبيل صيانة السلام ، وهي السياسة التي تنتهجها الاقطار الاشتراكية والدول المستقلة الفتية ، قادرة على اتقاء شر حرب عالمية جديدة .

كلا المذهبين - الارادوية والجبرية - خاطيء اذن . انصارهما يتصدون لحل المشكلة تصديا ميتافيزيقيا ، فبعضهم لا يعترف بغير الحرية ، وبعضهم الاخر لا يعترف بغير الضرورة . فيما ان كل شيء يتم بارادة الانسان ، وعندئذ لا يمكن ان يكون هناك مجال للضرورة ؛ وإما ان كل شيء يتم بقوة الضرورة والقانون ، وعندئذ لا يمكن ان يكون هناك مكان للحرية . الحرية تنافسى والضرورة . هذه هي نقطة انطلاق تلك المحاكمات .
ما الحل الصحيح اذن ؟ غالبا ما يقصد بـ «الحرية» في

الحياة اليومية انعدام كل قسر وكل اكراه وكل نهي . لهذا ، كثيراً ما يسود الاعتقاد بأن القانون والضرورة ينفيان الحرية : فما دام هناك قانون وضرورة ، فهناك أيضاً «اكراهات» و«قيود» . إذن فلا مجال للحرية . هكذا نجد ان حل مشكلة الحرية يعني الاجابة على السؤال المتعلق بمعرفة هل في وسع المرء ان يكون حراً مع انصياعه في الوقت نفسه لقوانين الضرورة الطبيعية .

لنبدأ بمثال . للرحيل عبر الفضاء ، لا بد من قهر الجاذبية الكونية التي «تشد» الانسان الى الارض . لكن هل يعني ذلك ان القانون الذي يعبر عن تلك الجاذبية قد ثبت بطلانه ؟ بديهياً ان لا .

حتى تأخذ المركبة الفضائية مكانها في مدارها ، فلا بد ان تزداد سرعتها الى حد تفوق معه قوتها المركسة قوة الجاذبية الارضية (وهذا لا يكون الا بسرعة تزيد عن ثمانية كيلومترات في الثانية الواحدة) . وقد افلح العلماء في اطلاق سفينة الى الفضاء لا رغم أنف قانون الجاذبية الكونية ، وانما بعد ان درسوا تأثيرها دراسة معمقة .

حين اطلق العلماء السوفييت صاروخا باتجاه القمر، اعتمدوا بالطبع على قانون الجاذبية الكونية . وقد زودوا الصاروخ بسرعة محددة اتاحت له الافلات من نطاق الجاذبية الارضية . ثم ارغمت بعد ذلك قوة الجاذبية القمرية الصاروخ على الاتجاه صوب القمر . ويبين هذا المثال على نحو قاطع مدى خطأ من يرثي اننا نفقد حريتنا بخضوعنا للقوانين ، ومدى خطأ من يبحث عن الوسائل للاحتيال على هذه القوانين وللالتفاف حول تلك «الضرورة التي تقيد الحرية» . ان اشباه هؤلاء الناس يفهمون الحرية على انها مستقلة عن القوانين . والحال ان هذا خطأ . اين تتجلى اذن الحرية الحقيقية ؟ هل تتجلى حيث « لا اعتراف» بأي قانون ، ام حيث تدرس تلك القوانين ويستفاد من

خدماتها ؟ الجواب واضح : في الحالة الثانية . لقد عبر لينين عن هذه الفكرة على النحو التالي : الضرورة عمياء ما دامت غير معروفة . لكن اذا عرفت الضرورة ، اذا عرف القانون ، اذا اخضعنا عمله لمصالحنا ، صرنا سادة الطبيعة . كتب انجلز في مؤلفه «ضد دهرينغ» : «لا تكمن الحرية في استقلال مرام عن قوانين الطبيعة ، وانما في معرفة هذه القوانين وفي الامكانية التي تتيحها هذه المعرفة لوضع هذه القوانين موضع تطبيق منهجي لاغراض محددة» .

وما تقدم ينطبق سواء بسواء على ظاهرات الطبيعة وعلى ظاهرات الحياة الاجتماعية . قبل ظهور الماركسية ، لم تكن قوانين التطور الاجتماعي معروفة . وكان الناس عبيد الضرورة التاريخية . وقد اماطت الماركسية اللثام عن تلك القوانين وبدأت تتعرفها . وكانت تلك هي الخطوة الاولى : فبعد ان تسلح الشفيلة بتلك القوانين صاروا المبدعين الاحرار لمصيرهم وشادوا حياتهم على نحو جديد ، طبقا للضرورة التاريخية . ان الحرية تمر عبر الضرورة .

يرثي الفلاسفة البورجوازيون المعاصرون ان الانسان حر حين يستطيع ان يتخذ قرارا اعتباطيا ، من دون ان يقيم اعتبارا لاي شيء .

والحال انه لا وجود لحرية من هذا النوع . والتمثيل على ذلك نلفاه في الحكاية الخرافية عن المساجلة التي نشبت بين دوارة الهواء وابرة البوصلة الممغنطة . فقد طفقت دوارة الهواء تتباهى بالقول :

— انني حرة ، انني ادور في كل اتجاه حسبما يحلو لي ، اليوم الى اليمين ، وغدا الى اليسار ؛ اما انت فكيفما اداروك عدت لتشيرني على الدوام الى الاتجاه ذاته .
فردت الابرة الممغنطة :

— ما ابدعها من حرية تلك التي تدعين ! انك لا تدورين الى اليمين

او الى اليسار بملء ارادتك . انما الرياح هي التي تقودك قسرا .
ولذلك تدورين . حريتك قصيرة ، قصيرة للغاية ، من ربح الى
ريح . حتى النسيم العليل يترك اثره فيك ، في حين ان امري
انا ليس رهين تقلبات الطقس ، بل احافظ بصلافة على اتجاهاى .
وهذا ما يتيح لي ، حين يريدون استشارتي ، أن اجد على الدوام
سواء السبيل .

اذا تمعنا في مغزى هذه الحكاية ، لم يصعب علينا الاقتناع
بأنه لا يجوز ان تصور الحرية على انها فعل اتخاذ القرار دونما
اعتبار لاي شيء .

يعتقد بعض الناس في البلدان الراسمالية ان طريقتهم في
التفكير ورغباتهم وعاداتهم هي نتيجة اختيارهم الحر . ولكنهم
في الواقع عبيد الشروط التي فيها يحيون ، عبيد الغرائز الفردية
المنزعة التي غرسها فيهم طراز حياتهم . وليس في ما يفعلون اثر
من «اختيار حر» بالمعنى الذي يذهب اليه العلماء البورجوازيون .
فكل شيء هناك رهين الضرورة . وفي ظل الراسمالية تتجلى هذه
الضرورة في شكل قوى اجتماعية عمياء يمكن تشبيهها بريح
عاصفة .

ويختلف تماما امر الحرية التي تستند الى معرفة الضرورة
في ظل شروط الاشتراكية . فهنا لا تعود القوانين تظهر بمظهر
قوى اجتماعية عمياء . ويرتكز نشاط الناس الى معرفة معمقة
بقوانين التطور الاجتماعي .

يؤكد اعداء الماركسية انه ما دامت هذه الاخيرة ترى في تطور
العالم نتيجة عمل قوانين موضوعية لا تتعلق لا بارادة الناس ولا
بوعيهم ، فانها تفضي بالضرورة الى الجبرية ، الى نفي نشاط
الناس الحر . ويقصدون بذلك ان الماركسيين يتصورون تطور
العالم على انه سيرورة مسبقة التحديد . ولكن ما دام الماركسيون
يتكلمون مع ذلك عن نشاط انساني حر ، فانهم يوقعون انفسهم ،

على حد ما يزعم اعداؤهم ، في تناقض مع مذهبهم بالذات .
يقول نقاد الماركسية : اذا كان مجيء الاشتراكية محتوما ،
فما جدوى النضال في سبيلها ؟ كل ما هنالك انه ينبغي انتظار
مجيئها ، لا اكثر . ما الداعي الى تنظيم احزاب ؟ الى تمهيد
السبيل امام الاشتراكية ؟ ويضيفون قائلين : لا يقوم الانسان
بتأليف احزاب كي يحقق كسوفاً شمسياً !

ان الماركسية - اللينينية لا تمت بصلة من قريب او بعيد
الى مثل هذا التصور المبتذل . فهي تقر بضرورة انتصار
الاشتراكية، لكنها لا تعني بذلك ان الاشتراكية آتية بصورة آلية.
تتميز ضرورة الظواهر الطبيعية تميزا جوهريا عن ضرورة
الظواهر الاجتماعية . وتحقق الضرورة في التطور الاجتماعي
على نحو مفاير للكيفية التي يتحقق بها تعاقب النهار والليل او
مجيء الربيع والصيف . فالظواهر الاخيرة تتم بدون مساهمة
الانسان .

وبالمقابل نرى ان كل شيء في المجتمع هو من صنع الانسان ،
من صنع نشاطه المنتج ، الثوري . لكن هل يعني ذلك ان الضرورة
الاجتماعية ، ان قوانين التطور الاجتماعي يتدعها بنو الانسان ؟
كلا . فالضرورة الاجتماعية لا تقل موضوعية عن الضرورة
في الطبيعة . لكنها تتميز عنها ، كما رأينا ، تميزا جوهريا .
الضرورة في الطبيعة لا تفترض نشاط البشر . أما في الحياة
الاجتماعية فان نشاط البشر هو من ضمن الشروط التي بدونها
لا تتحقق الضرورة ، لا تتجلى .

هل من الممكن ، على سبيل المثال ، تلافي الحرب بدون نضال
نشيط تخوضه الجماهير الشعبية الواسعة ؟ كلا . اذا بقيت
قوى السلام ساكنة بلا حراك ، نشطت حتما قوى الحرب .
وتعرض للخطر التعايش السلمي . وعليه فان توطيد السلم او
اندلاع حرب عالمية جديدة مرهونان بالشعوب نفسها ، بتصميمها
وحزمها ، بأفعالها النشيطة .

ان توكيد حتمية الحرب يعني تقليص نشاط الشعوب في كفاحها ضد هذه الآفة ، وتثبيت معنويات قوى السلم . وبالعكس : فالاقتناع بأن المنازعات ليست محتومة يساهم في زيادة عدد انصار السلم ويجرهم الى معترك النضال .

الضرورة التاريخية لا تنفي اذن دور البشر في تطور الاحداث ، بل تستدعيه وتفترضه . وتعلق الماركسية اهمية خاصة على نشاط البشر الحر . وهذا النشاط يسمى ايضا بالعامل الذاتي ، اي القوة التي يرتهن امرها بالفعلة ، بالناس ، بمعارفهم ، بجهودهم ، ببراعتهم .

يتصاعد دور العامل الذاتي ، دور نشاط البشر الحر ، تصاعدا مرموقا في مرحلة بناء الاشتراكية . بيد ان هذا النشاط عينه يرتكز الى شروط موضوعية وينجم عنها . ويتعرض معنى الحرية للتحريف والتشويه على ايدي الفلاسفة وعلماء الاجتماع البورجوازيين الذين يختزلونها الى «حرية الفكر المثالية» . يقولون : «يمكنك ان تكون عبدا راسفا في الاغلال ، وحررا بالفكر» .

الناس جميعا احرار في المجتمع البورجوازي ، في رأيهم . فلا احد يرغم العامل على العمل ، ولا احد يرغم الراسمالي على تقديم العمل له . ففي وسع العامل ان يذهب للعمل لسدى الراسمالي ، وفي وسعه الا يذهب . الامر امره ، بل ان ايدولوجيي الامبريالية اخترعوا لاقطار الراسمالية مصطلحا خاصا : «العالم الحر» . لكن لنرَ هل العالم المزعوم «حرا» هو كذلك فعلا ؟

حتى يكون الانسان حرا ، لا بد ان يكون سيد شروط الحياة الاجتماعية . فهل في وسعه ان يكون سيدها في ظل المجتمع الراسمالي القائم على الاستغلال والاضطهاد ؟

يبين لنا التاريخ انه لا وجود للحرية في مجتمع يوجد فيه

استغلال الانسان للانسان والاضطهاد القومي والاستعماري .
الحرية في مجتمع كذاك وهم ، خداع للشعب . ولا وجود
للحرية بالنسبة الى الشغيلة حيثما تسود الملكية الخاصة لوسائل
الانتاج ولازمتها ، استغلال الانسان للانسان ، لان حرية الشعب
في شروط كتلك لا يكون لها من اساس موضوعي فعلي . ان حرية
كتلك شكلية خالصة ، والشعب لا يستطيع التمتع بها .
المستغليون هم وحدهم الذين يتمتعون بالحرية . يعلمنا لينين انه
لا يمكن ان تقوم قائمة احرية فعلية في مجتمع يقوم في اساسه
على سلطان المال ، يتخبط فيه الشغيلة في حبال البؤس وتحيا
فيه حفنة من الاثرياء حياة طفيلية .

لا يفوز الشغيلة بحريتهم السياسية والاجتماعية الا متى
امسكوا بمقاييد السلطة وشادوا مجتمعا جديدا لا مكان فيه
للمستغلين والمضطهدين .

لا يشعر الانسان بأنه حر الا اذا توفر لديه اساس مادي كيما
يتمكن من تحقيق اهدافه وصبواته . ويقدم المجتمع الاشتراكي
هذا الاساس للناس الذين يعملون وينشطون . لذا نوه انجلز بأن
الاشتراكية قفزة من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية .
وفي ظل المجتمع الاشتراكي وحده تتاح للناس القدرة على التحكم
بمسيرة التطور الاجتماعي ، وعلى ان يكونوا سادة مصيرهم .

لقد اكدت التجربة التاريخية لبناء الاشتراكية في الاتحاد
السوفيياتي وفي اقطار اخرى استنتاج انجلز ذلك . ففي ظل
الاشتراكية ينعتق الانسان من الخوف من فقدان عمله ، من عدم
الاطمئنان الى الغد ، من الاستغلال والاضطهاد القومي ، وهذه
مكاسب تم تحقيقها في البلدان الاشتراكية . لكن حركة الانسانية
نحو حريتها لا تقف عند هذه الحدود . ففي المجتمع الاشتراكي الاعلى
سينعتق الانسان انعتاقا كاملا من قوى الطبيعة الفطرية .
وستتواجد جميع الشروط اللازمة لتمكينه من تعاطي عمل خلاق
حر ، ومن تطوير جميع ملكاته ومواهبه . وبذلك يكون قد تم

تجاوز آخر عقبة على الطريق التي تقود البشرية الى مملكة الحرية الحقيقية .

المضمون والشكل

ان لكل شيء ، لكل ظاهرة صفات مميزة وسمات جوهرية . ومجموعها يؤلف مضمون الشيء المعطى . فمضمون كتاب من الكتب ، على سبيل المثال ، يتمثل في الاحداث ، والناس الذين يصورهم المؤلف فيه ، والافكار التي يعرضها . اما الشكل فهو اللغة ، الصور ، الاوصاف التي يلجأ اليها المؤلف للتعبير عن المضمون على ادق نحو .

ان المضمون ، كما ترون ، لا بد ان يكون له شكل . لا مضمون بدون شكل مناسب . وهكذا ، فان لكل شيء ، لكل ظاهرة لا مضمونا فحسب ، وانما ايضا شكل . وهذا الاخير هو تنظيم المضمون ، بنيانه ، ما يجعله ممكن الوجود .

يؤلف الشكل والمضمون اذن وحدة . وهما يترابطان في كل شيء ، في كل ظاهرة ، اوثق الترابط . وهنا يطرح سؤال نفسه : ما الدور الذي تلعبه كل من هاتين المقولتين ؟ ما المقولة السائدة ، الحاسمة ، في هذه الوحدة ؟

ليس من الصعب الاقتناع بان شكل الشيء او الظاهرة يتعلق بمضمونها ، وذلك واضح من المثال التالي : فاشكال تجمع الفلاحين في تعاونيات لا يمكن تحديدها عسفا واعتباطا ، وانما تتعلق بمستوى الانتاج الزراعي ولا بد من ان تتناسب وياه . لهذا تقوم ، في العديد من الاقطار التي انعتقت مؤخرا ، اشكال محددة من التعاون : روابط مساعفة متبادلة ، تعاونيات للاستهلاك ولتصريف البضائع ، الخ . المضمون اذن يقتضي شكلا مطابقا له .

ان تعالق الشكل والمضمون لا يعني ان شكلا واحدا لا اكثر
يجب ان يطابق مضمونا محددًا . وذلك واضح من الامثلة التي
تقدمها الحياة الاجتماعية ، حيث يفرض المضمون الشكل طبقا
لشروط تاريخية عينية . لهذا لا يمكن ان يوجد شكل واحد ثابت
جامد .

ان الثورات القومية والكولونيالية التي تشكل مضمون
التحولات الاجتماعية يمكن ان تتم بأشكال بالغة التنوع . فقد
تكون سلمية او غير سلمية . واثناء الثورة يمكن ان يعاد استعمال
بعض اشكال الحكم القديمة لوضعها في خدمة الشعب وللمثها
بمضمون جديد .

لكن اذا كان الشكل تابعا للمضمون ، فهل يعني ذلك انه لا
يلعب اي دور ؟ كلا ، لا يجوز ان نهوّن من شأن الشكل الذي
يمارس تأثيرا على المضمون . لناخذ مثلا . استاذ يلقي محاضرة .
جمع مواد كثيرة ، والوقائع التي يستشهد بها مثيرة للاهتمام .
لكن الشكل الذي عرض به افكاره جاف ، باهت ، بلا حياة . فهل
يكون لهذا الشكل من تأثير على المضمون ؟ بلا ادنى ريب :
فالمضمون لن يشق طريقه بسهولة الى جمهور المستمعين .
وبالمقابل ، اذا عرض استاذ آخر الوقائع ذاتها بأسلوب حي ،
فستأتي النتيجة مغايرة تماما . فالمستمعون يكونون قد تمثلوا
كل شيء ، والمحاضر يكون قد ادرك هدفه .

المضمون يؤثر اذن على الشكل ، كذلك فان الشكل يسرد
بالتأثير على المضمون . ورد الفعل هذا يمكن ان يكون من نوعين .
فاذا طابق الشكل المضمون ، ساهم في تطوره . واذا لم يطابقه
اربكه واعاق تطوره . لكن دوره في جميع الاحوال فعال .
من الامثلة المتقدم ذكرها يتضح لنا اننا لا نستطيع في نشاطنا
العملي ان نعزو الدور الحاسم الى المضمون وحده ، متناسين
تأثير الشكل . فالشكل يمكن ان يساهم في تطور المضمون .
لكن كيف السبيل الى معرفة ما اذا كان الشكل يعيق

ليس ذلك بالامر الصعب اذا اخذنا بعين الاعتبار ان كل شيء يتطور . والمضمون لا يتوقف ابدا في تطوره . والشكل يتطور هو الآخر ، لكنه اكثر استقرارا ، و اقل حركة . انه يتأخر عن مضمونه . الشكل والمضمون ضدان . وحين ينقلب تعارضهما الى تناقض ، يتطلب هذا الاخير ان يوجد له حل .

ان كل ابتكار جديد يرى النور في اطار شكل قديم . هكذا كانت السيارة الاولى نسخة طبق الاصل عن العربة المعروفة باسم الكروسة Carosse . لكن يأتي حين يغدو فيه الشكل القديم كايضا لتطور صفات جديدة للعربة ، لتطور مضمونها الجديد . وهكذا غدا الشكل القديم للسيارة عقبة امام زيادة سرعتها ؛ فما كان هناك بد من اعطائها شكلا صاروخيا Aérodynamique .

في الحياة الاجتماعية نصطدم ايضا بضرورة مواجهة التناقضات التي تقوم بين الشكل والمضمون . ففي بعض الدول المستقلة ، على سبيل المثال ، يدخل النشاط الاداري لزعماء القبائل او لشيوخ الاسر الكبيرة في تناقض مع المهام التي يملئها بناء حياة جديدة . وتدعو الحاجة الى استبداله بشكل آخر للادارة : ادارة ممثلي الحكومة او الحزب او الهيئات المنتخبة محليا .

كيف السبيل الى امتصاص المنازعات التي تنشعب بين الشكل والمضمون ؟ بطرق مختلفة حسب الظروف : بطريق سلمي او غير سلمي تبعا لشروط المكان والزمان .

في البلدان الاشتراكية والبلدان التي سارت في طريق التطور غير الراسمالي ، يتم التخلص من تلك التناقضات من خلال التعديل التدريجي للاشكال القديمة ، بمبادرة من الحزب والدولة .

ان اولئك الذين يغالون في دور الشكل ولا يرون المضمون خلف الشكل ينزلون اذى فادحا بالقضية ، وذلك يقودهم الى

التزعة الشكلية . فعلى سبيل المثال ، يرسم بعض الفنانين لوحات بلا موضوع ، بلا مضمون ، لا تعدو كونها بقعا وخطوطا موزعة بلا هدف . وهذه الشكلية المشتتة في الفن تناقض الفن الحقيقي ، الفن الذي يطابق فيه الشكل الفني الامثل مضمونا عميقا .

لا تتجلى الشكلية في الفن فحسب ، بل ايضا في مسلك الناس ازاء عملهم ، ازاء اقرانهم . الشكلية تسبب الضرر اينما كان . الشكلية لا ترى الانسان الحي بحاجاته وصبواته . والشكلي في الحياة العملية بيروقراطي يقضي باليباس على كل عمل حي . لهذا ينبغي ان تكافح الشكلية .

لقد درسنا اذن القوانين والمقولات الاساسية للجدل المادي . اما مقولتا الماهية والظاهرة فمن الانسب دراستهما في اطار نظرية المعرفة . وثمة سؤال يطرح نفسه هنا : ما سبيل العلم الى معرفة العلاقات ، القوانين ، الماهية ؟ هذا ما سنراه الان .

الفصل الخامس

نظرية الجاذبية الجدلانية في المعرفة

الماهية والظاهرة

يعلمنا العلم والممارسة ان للاشياء مظهرين : مظهرا باطنيا مستترا عن اعيننا ، ومظهرا خارجيا يقع في متناول ادراكنا الحسي . وحين يقع شيء من الاشياء تحت اعضاء حواسنا ، لا ندرك منه في البداية سوى بعض التظاهرات المنعزلة وبعض وشائجه الخارجية . وبعبارة اخرى ، ان **عالم الظاهرات** هو الذي يتجلى لنا اولا .

والحال ان العلم والممارسة لا يمكنهما الاكتفاء بمجرد الادراك الحسي البسيط للظواهر والوقائع والاحداث المنعزلة ، كما لا

يمكنهما الاكتفاء بوصفها . فهدفهما الوصول الى القوانين الاساسية ، الثابتة ، التي تحكم الظاهرات ، والعلاقات العلية التي تولدها ، وترابطها العميق . ولا تقع قوانين الطبيعة والمجتمع في متناول الادراك الحسي المباشر ، ولا تتطابق مع الظاهرات . وتسليط الضوء على منطقتي تطور واقع ما يعني ان نتعلم كيف نعرف طبيعته العميقة ، كيف ننفذ الى ما يربط في كل واحد الوقائع التي تؤلفه ، الى ما يشكل جوهره واهم ما فيه . وفي تنوع الظاهرات تحديدا تختفي ماهيتها ، علاقتها الباطنة ، قوانين تطورها .

في المجتمع الرأسمالي ، يقع نظر المرء باستمرار على ظاهرات من اشباه الازمات ، والبطالة ، وإفكار الشغيلة ، واملاق الفلاحين ، والاضرابات ، والمظاهرات ضد نير الاحتكارات . وخلف هذه الظاهرات تختفي ماهية الرأسمالية ، نظام الاستغلال والاضطهاد .

الماهية ، كما نرى ، هي التعبير عن العلاقة الباطنة للعالم الموضوعي ، وهي تشكل اساس تعدد الظاهرات ؛ اما الظاهرة فهي الماهية وقد برزت الى النور ، الشكل الخارجي لتظاهرها . وعليه ، ليست الماهية شيئا وجد قبل الظاهرات ويوجد مستقلا عنها . بل تعكس الماهية والظاهرة الجوانب المختلفة لواقع واحد: فالماهية تعكس جوانب الباطنة ، الرئيسية ، والظاهرة تعكس مظاهره الخارجية ، المباشرة .

وليس لنا ان نتصور وحدة الماهية والظاهرة على انها تطابق . فلو كان كل شيء موجودا على سطح الظاهرات ، لأمكن فوراً ودفعاً واحدة اكتشاف قوانين تطور الطبيعة والمجتمع . والحال انه ليس ثمة شيء من هذا : فلمعرفة ماهية ظاهرة من الظاهرات ، لا بد ان ينجز العلماء عملا معقدا . ويقتضي اكتشاف الماهية دراسة علمية تركز الى الممارسة .

الشمس ، على سبيل المثال ، تبدو وكأنها تدور حول الأرض الثابتة . والحال ان هذا الظاهر يناقض الماهية كما ازاح النقاب عنها العلم والتجربة . وفي الواقع ، ان الأرض هي التي تدور حول الشمس .

في الحياة الاجتماعية تسمى القوى الرجعية، جاهدة السى تشويه الماهية وحجبها عن الانظار .

يعرض الامبرياليون ، على سبيل المثال ، «مساعدهم» على البلدان التي خلعت عنها نير الاستعمار . لكنهم يسعون ، تحت ستار المساعدة ، الى استعباد تلك البلدان اقتصاديا، حتى يبعثوا الاستعمار الى الحياة في شكل مغاير . ويجري تمويه ماهية الامبريالية عن عمد : فهي تنكر في ثياب «صديق» للشعوب ، وبخاصة شعوب البلدان المتخلفة .

يفصل المثاليون الماهية عن الظاهرة . وتقدم لنا فلسفة عمانوئيل كانط مثلا نموذجا على هذا الفصل . فقد كان هذا المفكر يقسم الواقع الى عالم ظاهرات وعالم ماهيات ؛ وعالم الماهيات ، او كما كان يدعوها «الاشياء في ذاتها»، كان في رأيه عصيا على المعرفة . وثبتت المادية الجدلية ، على العكس ، امكانية معرفة ماهية الاشياء وقوانين تطور العالم .

عظيمة هي قوة المعرفة ، والانسان المسلح بها لا يمكن قهره . ولو كنا لا نعرف ما يجري في العالم ، لما كان امكننا ان نحيا ونستغل فيه . ولما كان امكن تحقيق منجزات العبقريه الانسانية من اشباه الاقمار الاصطناعية والصواريخ الكونية وتدجين الطاقة الذرية ، بل لولا المعرفة لما كان امكن القيام بأي عمل مهما يكن بسيطا .

ومع ذلك ، يوجد اناس يؤكدون ان الانسان لا يستطيع ان يصل الى افكار صحيحة عن العالم ، اي ان يعرفه .

تقول الحكمة الشعبية : العلم نور . ولكن لا يحب الناس كلهم النور ، وهذا امر مفهوم . فتسليط الحزمة الضوئية

الساطة للعقل الانساني على العالم يعني أن الانسان يرى فيه ويتعلم ان يرى فيه الكثير من الاشياء ، ويعني ان في مستطاعه ان يفعل فيه الكثير من الاشياء .

وهذا بالضبط ما يخشاه دعاة التعمية والتجهيل من كل نوع ولون ومضطهدو الشعوب ، لأن الانسان بحصوله على المعارف يخلع عن نفسه نير العبودية الاجتماعية او السياسية او سواها ، ويصبح سيد نفسه وباني حياته . وليس من قبيل المصادفة ان تكون الشعوب التي خلعت عنها نير الاستعمار ، التي طُردت المضطهدين الفرنسيين والانكليز والاميركان وغيرهم ، قد شرعت على الفور بإزالة الأمية وبالدراسة . لكن ثمة أناس يشكون في معارفنا . من هم ؟

يؤكد بعض الفلاسفة المثاليين ان العالم لا يمكن ان يعرف ، وهم يسمون باللاادريين (١) .

تنكر اللادرية امكانية معرفة العالم ، وتستخدمها الفلسفة البورجوازية المعاصرة على نطاق واسع .

ما الحجج التي يتذرع بها اللاادريون تأييدا لأطروحاتهم ، وهل لها قيمة تذكر ؟ ان العالم لا يمكن ادراكه الا بواسطة اعضاء حواسنا : النظر ، السمع ، اللمس ، الخ . لكن الحواس ، على ما يقول اللاادريون ، شهود لا يوثق بهم كثيرا . فما اكثر ما تخدعنا حواسنا ! ان ملعقة صغيرة مغطوسة في قدح ماء تبدو لنا محطمة ، مشوهة ، ومن بعيد يبدو لنا المنزل أصفر مما يبدو

١ - حدد لينين في مؤلفه الفلسفي «المادية والتجريبية النقدية» على النحو التالي ذلك التيار الفلسفي : «كلمة اللاادري جاءت من اليونانية: ال «لا» اداة تصدير نافية ، و«ادري» هي المعرفة . اللاادري يقول : اني اجهل ما اذا كان يوجد واقع موضوعي ، منعكس ، متصور باحساساتنا ، واني اعلن انه من المستحيل معرفة ذلك» .

عن قريب . اذن لا نستطيع ان نصدق ما تقوله الحواس ؛ ذلك هو الاستنتاج الذي يخلص اليه اللادريون . فهل الامر كذلك في الواقع ؟

من يسمعون يخيل اليه ان الانسان لا يفعل شيئا غير ان يهيم على وجهه وينظر بعيون عاجزة الى الاشياء التي تحيط به . والحال ان ذلك غير صحيح . فليس الانسان متفرجا في العالم ، وانما هو صانع ، خالق . والعمل والممارسة هما اللذان يتيحان للانسان امكانية ضبط تأشيراته حواسه ، والوصول الى ماهية الاشياء ، والتفاد الى أعماق الظواهر المدروسة . وفي مثالنا ، يكفيه ان يسحب الملعقة من الماء حتى يقتنع بأنها غير مشوهة .

ان مسألة معرفة ما اذا كان في الامكان ان نعرف العالم تحلها ، كما نرى ، الممارسة ، الحياة . وانما اثناء عمل الانسان ونشاطه الإنتاجي ينفذ الى ماهية العالم المحيط ويتعلم كيف يعرفه .

لكن ماذا يفعل الناس حتى يحصلوا على هذه المعارف ؟

درجات المعرفة

لنتخيل اننا ارسلنا لدراسة العمل في احدى التعاونيات . بمَ نبدأ هذه الدراسة ؟ بجمع الوقائع بالطبع : عدد الشغيلة ، اساليب الزراعة والحصاد ، تنظيم العمل ، الخ . ثم نستخلص استنتاجات عن الحياة والعمل في تلك التعاونية .

هذا المنهج نفسه يستخدم من قبل جميع اولئك الذين يعملون في مضممار اكتشاف قوانين الطبيعة ومعرفتها : فهم يجمعون اولاً الوقائع من خلال اجراء تجارب او ملاحظة الاشياء ، وعلى كسل الاحوال ، باللجوء الى اعضاء الحواس . تلك هي اولى درجات المعرفة : المعرفة الحسية او الحدس الحي .

بعد ان نجمع عددا كافيا من الوقائع ، يتولى عقلنا تحليلها ، ومقارنتها فيما بينها ، ويستخلص استنتاجات . وتلك هي **ثانية درجات المعرفة : المعرفة المنطقية ، العقلية ، او الفكر المجرد** . لكن درجة المعرفة الاولى والثانية تتمسان كلتاهما على اساس النشاط العملي . فمن الممارسة ، من الحياة نأخذ الوقائع كي نحللها . كذلك فان الحياة والممارسة تحتاجان بدورهما الى الاستنتاجات التي نستخلصها من تلك الوقائع . فهذه الاستنتاجات لاغنى عنها لتحسين اشتغال التعاونية ، على سبيل المثال ، ولرفع مردود الاراضي المزروعة .

تتألف سيرورة المعرفة اذن من المعرفة الحسية والمعرفة المنطقية اللتين نكتسبهما على اساس الممارسة . كتب لينين يقول : «من الحدس الى الفكر المجرد ، ومنه الى الممارسة ، ذلك هو الطريق الجدلي لمعرفة الحقيقة ، لمعرفة الواقع الموضوعي» . في تاريخ العلم ، تذكر الحادثة التالية .

جاء ذات يوم بمريضة الى عيادة . كانت جميع اعضاء حواسها الاساسية مشلولة : البصر ، السمع ، الشم والذوق . وكان جلد احدى يديها هو وحده الذي حافظ على حساسيته . كان القناة الوحيدة التي تصل المعارف عن طريقها الى المريضة . ولكن ما كان أفقرها من معارف ! كانت في غالب الاحيان فسي حالة من الغفو العميق . ماذا تقول لنا هذه الواقعة ؟ تقول لنا ان اعضاء حواسنا هي الاقنية التي ينفذ من خلالها العالم المحيط الى دماغ الانسان . فتأثير العالم الخارجي يثير فيها الاحساس . ولا يسعنا ان نعرف شيئا من العالم المحيط عن غير طريق الاحساسات .

في حال فقدان الانسان لعضو من اعضاء حواسه ، يستطيع ان يعوض جزئيا عن هذه الخسارة بواسطة الاعضاء الاخرى . لكنه اذا حرم من اعضاء حواسه جميعا ، امسى عاجزا عن معرفة

الواقع . انه لن يعرف شيئاً عن العالم . ان الاحساس هو نتيجة الفعل الذي تمارسه اشياء العالم الخارجي على اعضاء حواسنا . ولهذا يعطينا معرفة حقيقية ، صحيحة ، بالعالم المحيط .

لكن كيف نشبت ان الاحساسات تعطينا معرفة صحيحة بالعالم ؟ ان تجربتنا ، في المقام الاول ، هي التي تثبت لنا ذلك . فلو كانت الاحساسات لا تعطينا معارف هي بوجه الاجمال صحيحة ، لما كان امكنا عمليا للانسان ان يستخدم اشياء العالم الخارجي : فالمواد ، التي قد تقول له اعضاء حواسه انها نافعة لجسمه ، قد تكون ضارة به ، والعكس بالعكس .

ان عيننا ، على سبيل المثال ، تبدو وكأنها تصور فوتوغرافيا الاشياء التي ننظر اليها . فاذا تحرك الشيء ، ظهرت على الشبكية صورة شيء يتحرك . واذا كان الشيء ساكنا ، فستأتي الصورة صورة شيء ساكن . ان العين تعكس ، تنسخ ما يحيط بنا . على هذا النحو تعمل اعضاء حواسنا جميعا . يخطئ اللاأدريون اذن اذ يؤكدون ان اعضاء الحواس شهود لا يوثق بهم . لكن كيف نفسر ، والحالة هذه ، الزيغ الذي تقع الحواس احيانا ضحية له ؟ نستطيع تفسير ذلك على النحو التالي . لو كان الانسان يدرك العالم باحساساته وحدها ، لما كنا عرفنا بالفعل سوى المظهر الخارجي للاشياء . والحال ان هذا المظهر خداع احيانا . فبناء على شهادة حواسنا ، نعتقد ان الشمس «تغرب وتشرق» ، ولكن ذلك ، كما نعلم ، خداع بصري . وللسبب نفسه ، نعتقد ان الماء الموجود في كأس بلورية «صاف كدمعة» . والحال انه يحتوي على آلاف الكائنات الحية الدقيقة : الجراثيم . بيد اننا نستطيع ، بمساعدة فكرنا ، ان نراقب ، نتحقق ، نضبط المعطيات التي تقدمها اعضاء حواسنا ، بمساعدة الفكر يتجاوز الانسان احساساته . هذا يعني ان العقل الانساني ، بالرغم من وضعه ثقته في حواسه واستخدامه لمعطياتها ، ينفذ الى حيث لا تستطيع الحواس نفاذا .

ما الدور الذي يلعبه الفكر في معرفة العالم ؟
 هوذا مثال . لاحظ طيار ، كان يحلق فوق مناطق مختلفة من
 البلاد ، ان الابرة الممغنطة لبوصلته تتحرك حركة غير عادية فوق
 احداها . ففي كل مرة كانت الطائرة تحلق فوق تلك المنطقة ،
 كانت الابرة الممغنطة تبتعد عن اتجاه الشمال - الجنوب .
 استنادا الى هذه الوقائع استنتج العلماء انه يوجد ولا بد في
 باطن الارض في المنطقة المعنية طبقات غير قليلة من فلزات الحديد
 تقضي على الابرة الممغنطة بالانحراف ، وتأكد ذلك نتيجة للتنقيب
 الجيولوجي . وهكذا تم اكتشاف منجم جديد لفلزات الحديد .
 بديهي انه لولا تلك الوقائع المستفاد على اساس معطيات
 الحواس ، لما كان عرف احد باحتواء تلك المنطقة على كنز حقيقي ،
 بيد ان ذلك الاستنتاج تم الوصول اليه على اساس المعطيات
 الحسية ، ولكن ليس من قبل الحواس ذاتها . فالعلماء لم
 يشاهدوا فلزات الحديد ، بل راقبوا «السلوك» الغريب للابرة
 الممغنطة ، اي ما كان موجودا على سطح الظاهرات . اما فلزات
 الحديد ذاتها فكانت مختفية في باطن الارض .
 لقد اقتضى الامر تدخل العقل لاستخلاص الاستنتاجات
 التي كانت تفرض نفسها . بواسطة الفكر اذن يكون الانسان فكرة
 عن الماهية ، عن العلاقات الباطنة ، اي عن قوانين تطوّر
 الظاهرات . واذا كانت الاحساسات تربط الانسان بالاشياء
 الخارجية ربطا مباشرا ، فان الاستنتاجات والاستنباطات تتم
 على اساس المعطيات غير المباشرة . فلمعرفة ما اذا كان في وسع
 الانسان على سبيل المثال ان يسافر على متن سفينة كونية من
 دون ان يجازف بحياته ، كان لا بد اولا من القيام بتجارب على
 الحيوانات : فجرى ارسال كلاب في صواريخ وسفن فضائية .
 وطبقا للمعطيات التي تم تحصيلها ، خلص العلماء الى الاستنتاج
 بأن أسفار الانسان في الفضاء لا تنطوي على خطر . وقد تأكدت

صحة هذا الاستنتاج بالنجاحات الباهرة لرواد الفضاء الاوائل .
 بدون وقائع ، لا استنتاجات . والعلماء بحاجة الى الوقائع
 حاجة الانسان الى الهواء ، والوقائع تقدمها لنا احساساتنا .
 كيف تستخلص الاستنتاجات انطلاقا من الوقائع ؟
 بفضل القدرة التي يمتلكها **الفكر** على التعميم . فالفكر يجمع
 في كل واحد السمات الاساسية المستقاة من بعض الوقائع ،
 ويخلق مفاهيم ، افكارا عامة ، صورا ، ويستخلص استنتاجات
 لها دلالة عامة بالنسبة الى مجموعة كاملة من الظواهر .
 تقدم الاحساسات الى العقل المعطيات والوقائع التي يحتاج
 اليها ، وحين تصبح هذه الوقائع بحوزة العقل ، يعمد السى
 التعميم . تلك هي الدرجة العقلية في المعرفة . ولو حرم الدماغ
 او العقل من الاحساسات لتوقفا عن العمل . ولولا عمل الدماغ
 الناظم ، لما وجدت معرفة حسية . عليه ، **تؤلف المعرفة الحسية**
والمعرفة العقلية مرحلتى السيرة الواحدة والمتلاحمة للمعرفة
التي تتم على اساس الممارسة . ولا سبيل الى فصل واحدتهما
 عن الاخرى . بيد ان محاولات من هذا القبيل جرت اكثر من
 مرة في تاريخ الفلسفة . كان بعض الفلاسفة يقولون ان الانسان
 يتعلم ان يعرف العالم بواسطة العقل وحده . **انهم العقلانيون** .
 وكان آخرون يؤكدون ، على العكس ، ان الانسان يتعلم ان يعرف
 العالم بواسطة الاحساسات وحدها . **انهم الحسويون** .
 يكمن ضيق نظرة العقلانيين في كونهم يبدون معطيات
 الحواس والتجربة الشخصية . والحال ان العقل لا يستطيع ان
 يقدم معارف جديدة الا حين تغنيه التجربة الشخصية ، ومعرفة
 الاشياء والظواهر ، تلك المعرفة التي تتيحها الممارسة .
 لكن يخطىء ايضا اولئك الذين يؤكدون ، على غرار
 الحسويين ، ان التجربة الشخصية والادراك الحسي المباشر
 للواقع من قبل اجهزة الحواس هما وحدهما القادران على تزويدنا
 بالمعلومات والمعارف عن العالم الخارجي .

يتبين لنا اذن انه لا تجوز المبالغة في دور اي من درجتسي المعرفة . فالمعرفة الحسية والمعرفة العقلية متعادلتا الاهمية ولا يمكن ان توجد واحدهما بدون الاخرى . وينجم عن ذلك استنتاج له اهميته بصدد وحدة النظرية والممارسة .

دور الممارسة في المعرفة

يتم تحصيل المعرفة الحسية والمعرفة العقلية في الممارسة . ولو كان الناس لا يحركون ساكنا ، لما عجزوا عن الوصول الى اي معرفة فحسب ، بل لما كان امكنهم الوجود اصلا . حين خلع البشر عن انفسهم نير العالم الحيواني ، ما كانوا يعرفون شيئا بعد عن تطور الطبيعة ، لكنهم كانوا قد بدؤوا العمل : فقد كانوا يتدبرون قوتهم ، ويبتنون لانفسهم مساكن ، ويصنعون ملابس . وانما في ممارسة الحياة اليومية تعلم الانسان كل ما هو بحاجة اليه للكفاح ضد الطبيعة .

ان التجربة اليومية لتقننا بذلك . فالانسان يأتي الى العالم خاوي الوفاض من المعرفة ، ثم يطفق يكسب معارف طردا مع احتكاكه بالظواهرات المحيطة من خلال سيرورة الممارسة . وحين يمد الطفل الرضيع يديه الى لسان اللهب لكي يمسك به ، فانه يكون ما يزال جاهلا بخواص النار ؛ لكن بعد ان يتعرفها فسي الممارسة يحاذر تكرار بادرته . وبذلك يكون قد اكتسب معارف معينة .

ولكن الممارسة لا تتألف من التجربة الفردية وحدها . فنحن لا نعتمد في نشاطنا على تجربتنا الشخصية وحدها ، بل ايضا على تجربة الآخرين ، اي التجربة الجماعية للانسانية قاطبة . وما الممارسة الاجتماعية الا نشاط البشر في مجموعهم ، ذلك

النشاط الذي به يفعلون في العالم المادي ويحولونه : انه النشاط الانتاجي ، صراع الطبقات ، حركة التحرر القومي ، البناء الاشتراكي ، التجريب العلمي ، الخ . والمعارف كلها تستمد في التحليل الاخير من الممارسة الاجتماعية للبشرية . ويقدم لنا تاريخ العلم براهين كثيرة على ذلك .

كيف ولد ، على سبيل المثال ، علم الهندسة ؟ منذ سحيق العصور أحس البشر على الدوام ، اثناء فلاحتهم لحقولهم وبنائهم لمساكنهم ، بالحاجة الى قياس اراضٍ من أحجام وأشكال مختلفة ، ورويدا رويدا اكتشفوا ان هناك طرائق عامة للقياس يمكن اعتمادها في قياس اي ارض اذا كان لها شكل محدد : مثلث ، مربع منحرف ، الخ . وكل علم ، ما دام تعميمًا للممارسة ، يرى النور على ذلك النحو .

تنبع المعرفة العلمية اذن ، وكذلك النظرية ، من الممارسة ، اساس المعرفة .

وليست **الممارسة** اساس المعرفة فحسب ، بل هي ايضا **محركها** . فلئن كانت الحياة تتطلب منا ان نجد أحسن طريقة للفلاحة ، فان هذه المهمة ، التي تطرحها الممارسة ، تلعب دور الحافز بالنسبة الى تطور علم الهندسة الزراعية .

كان لينين يقول ان وجهة نظر الحياة ، وجهة نظر الممارسة يجب ان تكون وجهة النظر الاولى ، الاساسية ، لنظرية المعرفة . لكن ألا نكون بذلك قد قلصنا اهمية النظرية والعلم فسي نشاط البشر الانتاجي او الثوري ؟ يسعى اعداء الماركسية ، التحريفيون ، الى اثبات ان الماركسيين - اللينينيين ، بتوكيدهم الدور الراجح للممارسة في المعرفة ، ينكرون دور النظرية . انهم يتهمون الماركسيين بـ «النزعة العملية الضيقة» ، اي بـ «ازدراء» النظرية . لكن ذلك كذب محض . فجميع الاحزاب الماركسية - اللينينية قد علقت على الدوام وتعلق اهمية فائقة على النظرية . وكان لينين يعلمنا ان النظرية تنير درب الممارسة .

لهذا كان الاقرار بأهمية الممارسة «فقط» ، او بأهمية النظرية «فقط» ، تنكرا للمادية الجدلية .

تؤلف النظرية والممارسة وحدة جدلية . ويتعذر فصل واحدتهما عن الاخرى . النظرية تولد من الممارسة . لكنها في الوقت نفسه تفيدها ، تفنيها . ولا يمكن ان توجد نظرية من دون ممارسة . لكن من دون نظرية ثورية ، لا يمكن كذلك ان توجد ممارسة ثورية . النظرية بدون الممارسة جثة ، وفي هذه الحال لا تفيد المبادئ النظرية ولا تفني شيئا . لكن بدون نظرية علمية ، تكون الممارسة عمياء ، بلا آفاق ؛ وبدونها ايضا يتعذر تولسي القيادة المتخصصة لمشروع ، لتعاونية ، او لبلد .

لا يمكن ان يوجد اذن اختصاصي جيد ، متفتح الذهن نظريا ، اذا كانت دراسته منقطعة عن الممارسة وعن النشاط الانتاجي ، وانما عندما يعمل الاختصاصي في الانتاج ويكتسب تجربة معينة وعادات معينة ، تغدو جذور معارفه النظرية عميقة . وفي الحياة تركيد ذلك .

اذن فالوحدة التي لا تفصم لها عرى بين النظرية والممارسة هي أهم أطروحة في نظرية المعرفة الماركسية .

على مدى قرون وقرون بقي الوجه غير المنار للقمر مجهولا ، وكان بعض الفلاسفة يصرحون ان الانسان لن يصل ابدا الى فك الغازه . ولكن ثبت تهافت هذا الزعم . فقد اخترع السوفييت محطة آلية عابرة للكواكب ، فدارت حول القمر وصورت فوتوغرافيا وجهه غير المرئي . ويشكل هذا الانجاز دحضا عمليا جديدا للادرية . فمن يصدق اليوم اللاادريين الذين يؤكدون ان ثمة «حدودا» للمعرفة ، بعد ان انطلق الانسان عبر الفضاء ووسع نطاق معارفه على نحو مرموق عن الكون ؟

تذلل البشرية ، في معرفتها للطبيعة ، عقبة تلو الاخرى . وهذا ما يجعل من الماركسية - اللينينية فلسفة عظيمة التفاؤل :

فهي تعلن ايمانها العميق بعقل الانسان .
تمضي المعرفة الانسانية اذن من الجهل الى العلم ، من
معرفة ناقصة الى معرفة اكمل فاكمل على الدوام .

ما الحقيقة ؟

نطلق صفة الصدق على كل معرفة غير مختلقة ، وتطابق ما
هو موجود . والحقيقة عكس الخطأ والكذب . وتوكيداتنا كاذبة
اذا كانت تؤكد ما لا وجود له في الواقع ، وهذا ما يشكل اساس
التصور المادي للحقيقة .

وعليه ، ما دامت المعارف الانسانية تحمل صفة الصدق اذا
كانت مطابقة للواقع ، فانها لا تتعلق والحالة هذه بعسف الناس
ورغائبهم . من هنا تنبع اطروحة الطابع الموضوعي للحقيقة .
والفلسفة الماركسية - اللينينية هي السبابة الى الاعلان عن هذه
الاطروحة وهي التي برهنت على صحتها .

يطلق لينين ، في مؤلفه «المادية والتجريبية النقدية» ، اسم
الحقيقة الموضوعية على ما لا يتعلق ، في التصورات الانسانية ،
بالذات ، على ما لا يتعلق بالانسان ولا بالانسانية .

ماذا ينبغي ان نفهم من ذلك ؟ لعل الحقيقة هي الطبيعية
بالذات ، ما دامت ذات وجود موضوعي ، اي مستقل عن الانسان
والانسانية ؟ كلا ، ففهم الحقيقة الموضوعية على هذا النحو خطأ
وضلال . ان ما هو موجود لا يمكن ان يكون صحيحا او خاطئا .
انه موجود فحسب ، ولا تكون صفة الصحة او الخطأ الا لمعارف
الناس وآرائهم ومزاعمهم ، وليس للواقع ذاته .

يمكن هنا ان ينطرح سؤال آخر . فاذا كانت الحقيقة هي
ما يعرفه الانسان ، فلماذا تؤكد انها لا تتعلق بالانسان ولا
بالانسانية ؟ الا يكتسب الناس معارف بعملهم ، بأبحاثهم ؟ يحاكم

بعضهم الامور على النحو التالي : ما دامت الحقيقة لا توجد خارج الانسان ، فلا وجود اذن لحقيقة موضوعية ، وانما الحقيقة ذاتية على الدوام ، ومتعلقة على الدوام بالانسان ، لكن هذه المحاكمة متهافئة .

صحيح انه ليس للحقيقة من وجود خارج الانسان ، لكن ما يشكل مضمون الحقيقة ليس منوطا بالانسان . فليست رغبة الانسان هي ما يضفي على مزاعمه وآرائه صفة الحقيقة ، وانما انسجامها مع الواقع الموضوعي ، مع ما يوجد في العالم مستقلا عن الفرد . لذا كان لينين يقول ان الحقيقة الموضوعية لا تتعلق لا بالانسان ولا بالانسانية ، وبعبارة اخرى ، لا تتعلق بعصف الناس . فالانسان لا يخلق الحقيقة ، وانما يعكسها طبقا لما هو موجود في الواقع الموضوعي .

من الهمية بمكان ، بالتالي ، ان نستند في نشاطنا العملي ، في حياتنا اليومية ، الى توكيدات واحكام مطابقة للواقع . لكن ما يضمن للناس صدق معارفهم وانسجام هذه المعارف مع الواقع ؟ وبعبارة اخرى ، اين **المعيار** ، اي مقياس صحة معارفنا ؟

يزعم بعض الفلاسفة البورجوازيين ان الفكرة تكون صحيحة اذا كانت نافعة ومفيدة للناس . انهم الذرائعيون او البراغماتيون (من اللفظة اليونانية «براغما» التي تعني عملا ، شغلا) . وليس معيارهم عن الحقيقة معيارا موضوعيا ، وانما ذاتي . فما من نظرية او فكرة مفلوطة ولا معقولة الا وتعود بالنفع احيانا على هذا الانسان او ذلك ، على هذه الطبقة او تلك . ومن قبيل ذلك الفكرة التي لا جدال في لامنطقيتها ولامعقوليتها ، فكرة الرسالة «التمدينية» للمستعمرين ، فهي نافعة لمضطهدي الطبقة الشغيلة ، لكنها خاطئة .

لكن اليست النظريات الصحيحة نافعة ؟ الا تخدم المعادلات

التي تصوغها الرياضيات والفيزياء اهدافنا ؟ بلا مرأ : فهي نافعة للناس . ولكن ليس ذلك هو السبب الذي يجعل هذه النظريات صحيحة . بل على العكس ، فهي نافعة للناس على وجه التحديد لانها صحيحة ، اي لانها تعكس بصحة العالم الواقعي .

يقول فلاسفة آخرون : الحقيقة هي ما يتفق عليه الناس ، او غالبيتهم . هذا المعيار ذاتي هو الآخر . فليس امرا ذا بال ان نسيطر الحقيقة برغائب عدد كبير او صغير من الناس ، فقد يحدث ان يصدر الخطأ حتى عن الكثرة .

اين نعر اذن على معيار للحقيقة لا يتعلق برغائب الناس وآرائهم ، بل يكون موضوعيا؟ هذا المعيار هو الممارسة الاجتماعية . فنشاط الناس العملي هو الطريقة الاكيدة والمأمونة الوحيدة التي تسمح بالتحقق من صحة آرائنا ونظرياتنا وافكارنا او من خطئها . وقد كتب ماركس يقول انه على الانسان ان يشبث في الممارسة تحديدا حقيقة فكره وقوة فكره .

اذا اكدت الممارسة المعارف التي تم تحصيلها على اثر دراسة الواقع ، تكون هذه المعارف صادقة ، صحيحة ، فوق كل شك . وبالمقابل ، فان النظريات التي لم تصمد لامتحان الحياة والممارسة هي نظريات خاطئة . فالنظريات التي تؤكد خلود الرأسمالية ، على سبيل المثال ، لم تصمد لامتحان الحياة والممارسة . وقد لفظت ممارسة العديد من شعوب الارض هذه النظريات بوصفها خاطئة .

لماذا نتحقق من صدق معارفنا وصحتها بالممارسة ؟ اننا لا نسمى الى معرفة الحقيقة بباعث الفضول الباطل . فالفكرة التي يتقدم بها مخترع من المخترعين ، عالم من العلماء ، لا يكون لها من قيمة الا اذا كان في الامكان وضعها موضع التطبيق . لكن هل من الممكن وضع كل فكرة موضع تطبيق ؟ كلا . فليس يصلح للتطبيق سوى الفكرة الصائبة ، الصحيحة . اما الافكار الخاطئة

فلا سبيل الى تطبيقها ، لانها لا تطابق الواقع . لهذا نتحقق من صدق معارفنا وصحتها بالممارسة .

بناء على ما تقدم ، يكون منسجما مع الواقع ما تؤكده الممارسة وما يمكن وضعه موضع تطبيق .

فعلى سبيل المثال ، حين نحاول تقييم نشاطنا الانتاجي ، العلمي ، الاقتصادي ، السياسي ، فلا بد من الاسترشاد بمعيار وحيد : معيار النتائج العملية المتحققة . الحياة هي الحكم الاعلى . فاذا دحض الواقع حساباتنا ، افتراضاتنا ، فرضياتنا ، يجب ان يكون لنا من الشجاعة القدر الكافي للعزوف عنها ، لاعادة النظر في معارفنا ، لجعلها منسجمة مع التجربة والممارسة . لكن اذا ابدينا عنادا ، اذا لم نقم اعتبارا للوقائع ، تعثرنا وزلت بنا القدم لا محالة .

يلجأ الناس على الدوام الى الممارسة - معيار الحقيقة - كلما ارادوا معرفة قيمة التوكيدات والوعود والاقوال . فالافعال والاعمال هي على الدوام خير محك لها .

الممارسة اذن هي معيار الحقيقة ، منبع المعرفة وهدفها .
سؤال آخر : كيف نعرف الحقيقة الموضوعية ؟ ادفعة واحدة ام تدريجيا ؟

ان العلم لا يستطيع ان «ينجز» او ان «ينهي» سسرورة المعرفة ، وتاريخه يشهد على ان كل حقيقة علمية لم تكتشف دفعة واحدة ، وانما بالتدرج . ما تفسير ذلك ؟
يدرس كل انسان الطبيعة بواسطة الوسائل المتاحة له ، المقدمة له من المجتمع .

وقد مر حين من الزمن لم يكن فيه تحت متناول الباحثين لا ميزان ، ولا مقياس حرارة ، وكم بالاحرى مجاهر او مرآصد . وبديهي ان ذلك كان يحد من امكانياتهم . وقد بات العلم اليوم مسلحا بأعقد الادوات . لكن هل يمكن ان يخامرنا شك في ان

هذه الادوات لن تتحسن في المستقبل ، وان الناس لن يعرفوا عن الطبيعة اكثر مما يعرفون عنها اليوم ؟
لكن اذا لم يكن ثمة وجود لمعارف كاملة ، ناجزة ، واذا كانت المعارف جميعا نسبية ، فهل للحقيقة المطلقة من وجود ؟ اي الحقيقة التامة ، الكاملة ، الشاملة ؟

يجيب بعض الفلاسفة على النحو التالي : لا وجود لحقيقة مطلقة ، وانما هناك فقط **حقائق نسبية** . فكل شيء في معارفنا عابر ، عارض ، مائع ، ولا شيء ثابت . ولهذا يسمى اولئك الفلاسفة بـ «النسبيين» .

ويحاكم فلاسفة آخرون الامور على النحو التالي : الحقائق التي تشيخ ، التي تتطلب ان توضح وان تكمل ، ليست حقائق . اننا لا نعترف بغير الحقائق المطلقة ، الناجزة . والفلاسفة الذين يحاكمون الامور على هذا المنوال قطعوني ، دوغمائيون : فالحقيقة تتألف في نظرهم من عقائد **Dogmes** ، اي مبادئ ابدية ، ثابتة ، لا تقبل نقاشا او تعديلا .

يقولون : لا سبيل الى الشك في ان اثنين ضرب اثنين يساوي اربعة ، وان مجموع زوايا المثلث كان دوما وسيبقى ابدا مساويا لقائمتين ، وان باريس موجودة في فرنسا . ان هذه لحقائق ابدية ، نهائية ، اي حقائق مطلقة .

وبالفعل ، اليس لهذه الحقائق من وجود ؟

بلى ، ان اشباه هذه الحقائق موجودة ، في علوم الطبيعة اللاعضوية ، على سبيل المثال ، في الرياضيات ، في علم الفلك ، في علم الميكانيك . فهنا يمكن بالفعل العثور على حقائق مسن اشباه اثنين ضرب اثنين يساوي اربعة . والحال انه في هذه العلوم المسماة بالرياضية ليست جميع المبادئ ابدية كما يتصور القطعيون . ففي علم الفلك والفيزياء والكيمياء مئات الفرضيات التي دحضها في زمن لاحق العام الذي ما ينبي ابدا في تطور .
لكن الا توجد اذن حقائق علمية ابدية ، اي حقائق غير قابلة

للدحض في المستقبل ؟ ان المادية الجدلية تقر بوجود اشباه هذه الحقائق ، ولكن من غير ان يفيب عن نظرها ان الحقيقة ، كما يقول لينين ، سرورة . اننا لا نستطيع تخيل الحقيقة في شكل صورة فوتوغرافية ناجزة ، كاملة ، للطبيعة بأسرها . فليست معرفة الحقيقة المطلقة فعلا خاطفا ، وانما طريق لامتناهٍ الى المعرفة . والإنسانية لن تقطعه الى نهايته ابدا ، لن تصل ابدا الى خاتمته .

تم معرفة الحقائق المطلقة من خلال تراكم المعارف النسبية . وتكمن حركة المعرفة في كون هذه الحقائق النسبية ، بتراكمها رويدا رويدا ، تقرّب الانسان من معرفة الطبيعة كاملة ، معرفة ظاهراتها وقوانينها . وكما يتألف الكل من اجزاء ، كذلك تتألف الحقيقة المطلقة من حقائق نسبية طردا مع تقدم المعرفة الذي ليس له من حدود .

ان مثل هذا التصور للحقيقة المطلقة ، باعتبارها حاصل الحقائق النسبية التي هي قيد تطوّر دائم ، موجه ضد الميتافيزيقيين الذين يفصلون الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية واحدهما عن الاخرى . والحال انه ليس ثمة من حاجز فاصل بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة . فنحن نحصل في الحقائق النسبية على شذرات ثمينة من الحقيقة المطلقة .

لنأخذ مثلا . قبل زهاء ٢٠٠٠ سنة قامت فرضية تقول ان جميع الاجسام تتألف من جزيئات صغيرة جدا وغير قابلة للقسمة : الذرات . وقد اثبت العلم اليوم ان الاجسام مؤلفة فعلا من ذرات ، لكن الذرات ذاتها قابلة للقسمة . فرضية القدامى كانت اذن حقيقة نسبية ، لكنها كانت تحتوي على عناصر من الحقيقة المطلقة . وتتمثل هذه الحقيقة المطلقة في ان الذرات لها وجودها الفعلي ، وان كانت تتألف من جزيئات اصغر وادق ايضا . وبلاصل ، لم يستنفد العلم في هذه المسألة امكانياته جميعا . فبنية الذرة ستحظى بدراسة اعمق فاعمق على الدوام ، وبالتالي

ستحظى النظرية الذرية بمزيد من التطوير .
انا لا نجد طريقا الى معرفة الحقيقة المطلقة دفعة واحدة
ونهاية ، وانما يكون ذلك تدريجيا ، بواسطة الحقائق النسبية .
ويعطينا حاصل الحقائق النسبية قيد التطور الدائم معرفة كاملة ،
عميقة ، مطلقة ، سواء ابلطبيعة في مجملها ام بهذا المظهر او ذاك
من مظاهر الواقع الموضوعي .

تعلمنا المادية الجدلية ان الحقيقة عينية دوما .

**الحقيقة العينية هي تلك التي تعكس على الوجه الصحيح
ماهية ظاهرات محددة وشروط تطورها .** اما الحقيقة المجردة
فهي ، على العكس ، لا تقيم اعتبارا للوضع العيني ، لشروط
وجود الظاهرات ، والتشبهت بالحقيقة المجردة ضرب من القطعية
الدوغمائية . مثال : تتعذر الاجابة تجريديا على المسئلة المتعلقة
بمعرفة ماذا ينبغي ان تكونه اساليب الكفاح في سبيل السلم
والديموقراطية . ولا سبيل للاجابة الصحيحة على هذا النوع من
الاسئلة الا في حال اخذ الشروط العينية لهذا الكفاح بعين
الاعتبار . ولا بد من تمييز الموقف الذي تتواجد فيه البلدان التي
انعتقت من النير الراسمالي من الموقف الذي تتواجد فيه البلدان
التي ما تزال تناضل في سبيل انعتاقها ، الخ .

تقتضي الماركسية الخلاقة ان تؤخذ بعين الاعتبار على الدوام
الشروط العينية والاجواء التاريخية التي يدور فيها نشاطنا ،
وذلك ما يسمى بتناول ظاهرات الواقع تناولا عينيا ، تاريخيا .
تلك هي مستلزمات نظرية المادية الجدلية في المعرفة .

خاتمة

في عصرنا ، عصر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، تشعر الشعوب بانجذاب شديد الى المذهب الماركسي الذي يأسر الباب اعداد متزايدة باستمرار من اصحاب العقول النيرة المتقدمة .

وتنتشر الفلسفة الماركسية عبر نضال ضارٍ ضد الفلسفة البورجوازية المعاصرة . وثبتت الفلسفة الماركسية ان الامبريالية ماضية لا محالة الى هلاكها ، وتؤكد انتصار نظام اجتماعي جديد على ظهر الارض . لهذا تنتصب جميع مدارس الفلسفة البورجوازية المعاصرة واتجاهاتها في جبهة موحدة للدفاع عن نظام بالٍ ولكافحة افكار التقدم ، وتفرض الفلسفة الماركسية جذورها في اعماق الحياة والواقع والممارسة . انها بوصلة موثوقة ، مرشد في الحياة والنشاط اليوميين .

ان العديد من الشعوب لفي سبيلها الى بناء مجتمع اشتراكي بمجهودها الخلاق ، الحماسي . وليس دربها مزروعا بالانتصارات

الكبيرة وحدها ، بل ايضا بالصعاب والعقبات اليومية . ولتذليلها ، لا بد من تمثيل المعارف العينية المعمقة التي يقدمها العلم المعاصر . لكن ذلك لا يكفي بعد لتشييد بناء الاشتراكية المشع . فالاعمال التي ترقى الى مصاف المآثر تتطلب طاقة هائلة من الشعب بأسره . واذا لم يكن لدى الشعب اقتناع عميق بصحة المثل العليا الاشتراكية ، تعذر بناء النظام الاجتماعي الجديد . وتقدم لنا فلسفة الاشتراكية العلمية ، المادية الجدلية ، هذا الاقتناع العميق ، وتدفع بالناس الى تجنيد انفسهم بلا تحفظ من اجل قضية الشعب ، قضية الاشتراكية .

تعطينا المادية الجدلية ، وهي التصور العلمي للعالم ، يقينا راسخا لا يتزعزع بأن انتصار الاشتراكية في العالم قاطبة امر محتوم . وما هذا بإيمان سلبي ، لا يخضع للعقل ، وانما ينبع هذا اليقين من المعرفة العميقة بالقوانين العامة للتطور الاجتماعي التي اماط اللثام عنها المذهب الماركسي . ونزولا عند حكم قوانين التاريخ التي لا راد لها ، شهدت شعوب البلدان الاشتراكية حياة جديدة تعقب الرأسمالية المحتضرة . وقد بدأت البلدان ، التي خلعت عنها نير السيطرة السياسية والاقتصادية والايديولوجية للامبريالية ، تشيد هي الاخرى مستقبلا وضاء .

الفهرس

٥	تقديم
٦	الفصل الاول : المادية الجدلية فلسفة الماركسية
٦	١ - ما الفلسفة ؟
١٣	٢ - نشوء المادية الجدلية
٢٢	الفصل الثاني : المادة وأشكال حركتها
٢٢	ما المادة ؟
٢٧	المادة والحركة لا تنفصلان
٢٩	الزمان والمكان ، شكلا وجود المادة
٣٣	لاتناهي العالم ووحدته
٣٦	الفصل الثالث : المادة والوعي
٣٦	الوعي خاصية المادة الرفيعة التعضي
٤١	الفكر واللغة
٤٤	الفكر والآلة

الفصل الرابع: القوانين والمقولات الأساسية للجدل الماركسي ٤٦

- ١ - ما القانون ؟ ٤٧
- ٢ - قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية ٥٠
- ٣ - قانون وحدة الاضداد وصراعها ٥٧
- ٤ - قانون نفي النفي ٦٤
- ٥ - مقولات الجدل الماركسي : ٧٠

ما مقولات الجدل الماركسي ؟ ٧٠ - العلة

والمعلول ٧١ - اللزوم والاحتمال ٧٧ -

الضرورة والحرية ٨٣ - المضمون والشكل ٩١

٩٥ الفصل الخامس : نظرية المادية الجدلية في المعرفة

الماهية والظاهرة ٩٥ - درجات المعرفة ٩٩ - دور

الممارسة في المعرفة ١٠٤ - ما الحقيقة ؟ ١٠٧

صدر عن دار الطليعة من

سلسلة الثقافة المعاصرة

الماركسية اللينينية ونظرية الحزب الثوري
(طبعة ثانية)

منير شفيق

الفرد والمجتمع
(طبعة ثانية)

ب. بيخوفسكي

علم الاجتماع الماركسي
(طبعة ثانية)

كونستانتينوف وكيل

المشاعة ، الرق ، الاقطاع : التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية
ما قبل الرأسمالية

زوبريتسكي ، كيروف ،
متروبولسكي

نظرة ماركسية في تاريخ الفلسفة
ي. كليبايتش

القضايا الفلسفية المعاصرة

اميل براهيبه

حرية الفن

هونور ارونديل

ما الوعي الطبقي ؟
(طبعة ثانية)

ويلهلم رايش

علم الثورة في النظرية الماركسية

يوري كرازين

الادب والثورة

تروتسكي

الماركسية بعد ماركس

بيير سويري

فكر غرامشي السياسي

جان مارك بيوتي

البروليتاريا والتنظيم

كاستورياديس

هذا الكتاب

هذا الكتاب يتوجه أولاً الى اولئك الذين يدرسون المادية الجدلية لأول مرة، ولكنه يتوجه أيضاً الى اولئك الذين يريدون ان يعرفوا، بوضوح ودقة وتبسيط، ما كُتبه القوانين الأساسية للمادية الجدلية بدءاً من المادة وتعريفها، وعلاقتها بالحركة، وبالزمان والمكان، وبالوعي والفكر واللغة، ووصولاً الى المقولات الأساسية للجدل، كقانون نفي النفي، ووحدة الأضداد وصراعها، والسّم والنوع، والعلة والمعلول، واللزوم والاحتمال، والضرورة والحرية، والمضمون والشكل، والصواب والخطأ، والجوهر والظاهرة.

انه كتاب لاغنى عنه لكل من يريد الاطلاع على مبادئ النظرية المادية الجدلية في المعرفة والتعمق فيها على حد سواء.

الثمان : ٥٥٠ ق.ل.
او ما يعادلها

دارُ الطليعة للطباعة والنشر
بيروت